سلسلة القادة والفاتحون

فاتح مصر

عمرو بن العاص

إعداد

منصور علي عرابي



بسم الله الرحمن الرحيم

عمرو بن العاص رضي الله عنه ، داهية قريش، وفاتح مصر، وأحد عظماء العرب، كان يضرب به المثل في الفطنة والذكاء والحزم، أسلم بعد صلح الحديبية، ففرح النبي ﷺ بإسلامه، وولاه قيادة بعض الجيش، ولما أسلمت عُمان جعله النبي ﷺ أميراً عليها، وشهد له ﷺ بالصلاح وقوة الإيمان، فقال ﷺ: "ابنا العاص مؤمنان: عمرو وهشام" [أحمد] وقال ﷺ: "عمرو بن العاص من صالحي قريش، نعم أهل البيت أبو عبد الله، وأم عبد الله، وعبد الله" [أحمد].

ولما تولى أبو بكر الخلافة جعل عمراً من أمراء الجيوش في حروب الردة والجهاد بالشام، فافتتح عمرو حلب وأنطاكية وغيرها..

وفي زمن الفاروق عمر فتح عمرو مصر، فجعله أميراً عليها، ثم عزله عثمان بع عفان رضي الله عنه فعاد إلى الشام وظل بها مدة.

وفي زمن معاوية رضي الله عنه عاد عمرو أميراً على مصر، وظل بها حتى توفي بالقاهرة سنة 43هـ (664م).

وفي الصفحات التالية نتعرف على فاتح مصر، وأول أمرائها، أبي عبد الله، عمرو بن العاص رضي الله عنه.

مولد عمرو نشأته

ولد عمرو بن العاص بمكة سنة 50 قبل الهجرة (574م)، من أب قرشي، فأبوه هو العاص بن وائل السهمي، زعيم بني سهم، وهم فرع من قريش. وأم عمرو هي سلمى بنت حرملة من بني عنزة، وكانت تلقب بالنابغة، وقد وقعت في الأسر، فبيعت في سوق عكاظ بـــ " مكة "، فاشتراها العاص، فولدت له عمراً.

نشأ عمرو على جو من الثراء ورغد العيش، فقد كان أبوه ثرياً واسع الثراء، فتعلم عمرو القراءة والكتابة، وعرف منذ صغره بحدة الذهن والذكاء وحضور البديهة وسعة

الحيلة، كما عرف بالجرأة والشجاعة والفروسية، إلى جانب حبه للمال ونزوعه إلى السيادة وحب السلطان.

وقد عمل عمرو في مطلع شبابه بمهنة التجارة، وتعلم أصولها من أبيه، وقد تعرض أبوه لضائقة مالية، حيث فقد كثيراً من ماله وثرورته بسبب الإنفاق على حل الخصومات إلى جانب مجونه ولهوه، مما اضطر عمراً لمزاولة مهنة الجزارة، طلباً للكسب، فعمل جزاراً بـــ "مكة" مدة من الزمن حتى كثر ماله فعاد للتجارة، ثم تزوج من امرأة قرشية من قومه، وهي ريطة بنت منبه بن الحجاج السهمي فأنجبت له عبد الله بن عمرو أكبر أولاده.

سفير قريش للحبشة

عندما بلغ عمرو من العمر 37 سنة بدأت دعوة رسول الله ﷺ لأهل مكة إلى الإسلام، فوقف عمرو مع أبيه العاص من الإسلام موقف العناد والعداء، وكان أحد زعماء الشرك الذين حاربوا دعوة الحق وحاولوا إطفاء نور الله، وراحوا يؤذون رسول الله ﷺ وأصحابه، ويعذبون الضعفاء منهم، فأمر النبي ﷺ بعض أصحابه بالهجرة إلى الحبشة، حيث هناك ملك عادل، لا يظلم أحد عنده، فهاجر بعض المسلمين إلى الحبشة على رأسهم جعفر بن أبي طالب، ومكثوا يعبدون الله عند النجاشي.

ولما علمت قريش بهجرة بعض المسلمين إلى الحبشة اجتمعوا في دار الندوة يتشاورون، وكان من بينهم عمرو بن العاص، فاقترح بعضهم أن يذهب وفد من قريش إلى النجاشي بهدايا يحبها، ثم يكلمه في أمر هؤلاء المسلمين الذين عنده، فيوغر صدره عليهم، فيطردهم، ثم يأتوا بهم مكة ليعذبوهم حتى يرجعوا عن دينهم، فوافق الجميع على هذا الاقتراح، ووقع اختيار القوم على عمرو بن العاص للقيام بهذه المهمة مع بعض شباب قريش، لما عرف عنه من صلته الطيبة بالنجاشي إلى جانب دهائه وسعة حيلته، فقام عمرو، وجهز الهدايا، وانطلق في سفارته، وكله أمل أن يحقق لقريش ما تتمناه، فلما وصل الحبسة أعطى بعض البطارقة من الهدايا حتى يقفوا بجانبه ويقنعوا النجاشي بما يريد، ثم استأذن على النجاشي فأذن له، فدخل عمرو فرحب به النجاشي، وسأله عما يحمله، فقدم له عمرو الهداديا، فشكره النجاشي، ثم سأله عن أحواله وأحوال قومه، فوجدها عمرو فرصة مناسبة لتحقيق مطلبه، فأخبره بأنه قد ظهر في مكة رجل يدعي أنه نبي، فأفسد على العرب معتقدهم، وفرق بين الناس، ثم ذكر له أن جماعة من أتباعه لجئوا إلى الحبشة وأقاموا فيها، وقريش ترغب في إعادتهم إليها لعقابهم، ولكن النجاشي لم يوافق على طلب عمرو حتى يسمع من الطرف الآخر، فاستدعى المسلمين، فجاءوا يتقدمهم جعفر بن أبي طالب، فتكلم، ودافع

عن إخوانه، وعن دعوة الإسلام، مما جعل النجاشي يرفض أن يسلمهم لعمرو، فخرج عمرو حزيناً، ولكنه فكر في حيلة أخرى، حيث ذهب إلى البطارقة وأخبرهم أن هؤلاء ينكرون ألوهية عيسى ويقولون أنه بشر، فضجوا، وثاروا، ثم أخذوا عمراً ودخلوا على النجاشي، وأخبروه بما قال، فاستدعى النجاشي المسلمين، وقال لهم: ما تقولون في عيسى بن مريم؟ فقرأ جعفر من أول سورة مريم. ثم قال: هو رسول الله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، فأعجب النجاشي بذلك، وقال: هو والله كذلك، ولن يستنكف عيسى أن يكون عبداً لله، ثم أعطى المسلمين عهده على مقامهم في جواره في أمان و لم يبال بما قال "البطارقة"، ورجع عمرو إلى مكة مخذولاً وقد فشلت سفارته، وظل عمرو في عداء شديد مع النبي ﷺ ، حتى توفي والده العاص بن وائل.

إسلام عمرو

بعد وفاة العاص بن وائل جلس عمرو يفكر في أمر الإسلام، وقد رأى قوة المسلمين تزداد يوماً بعد يوم، وأن نصر الله يواكبهم، فأحس أن الإسلام هو الطريق الصحيح، وشعر بصدق رسالة رسول الله ﷺ ، فعزم على أن يسلم، وكان ذلك بعد صلح الحديبية، فخرج في بداية صفر سنة 8هـ يريد المدينة، فقابله خالد بن الوليد وعثمان بن طلحة يريدان نفس الأمر، فاصطحبوا جميعاً، وفي المدينة قابل عمرو رسول الله ﷺ وأسلم، وبايع النبي ﷺ على الجهاد، ففرح النبي ﷺ بإسلامه، وعلم صدق إيمانه، فقال ﷺ: "أسلم الناس وآمن عمرو بن العاص" [أحمد].

نعم العبد الصالح

بعدما أسلم عمرو صاحب رسول الله ﷺ ، وظل بجانبه يتعلم منه ويتفقه في الدين، وذات يوم اختاره النبي ﷺ لقيادة جيش متجه إلى "ذات السلاسل"، وذلك لأن بها قوماً من بني قضاعة يتأهبون للزحف على المدينة، ومحاربة المسلمين، فجهز النبي ﷺ هذا الجيش، ثم استدعى عمراً، وقال له: "إني أريد أن أبعثك على جيش، فيسلمك الله ويغنمك، وأرغب لك رغبة صالحة من المال"، فخاف عمرو أن يظن النبي ﷺ أنه يحب المال أكثر من الإسلام، فقال: يا رسول الله، ما أسلمت من أجل المال، بل أسلمت رغبة في الإسلام، ولأن أكون مع رسول الله ﷺ. فطمأنه ﷺ بأنه يعلم ذلك، ولكنه يريد له

الخير، فقال صلى الله ﷺ: "يا عمرو، نعما بالمال الصالح للرجل الصالح" [أحمد والحاكم]. فخرج عمرو ومعه ثلاثمائة رجل، فلما وصل إلى "ذات السلاسل" وجد العدو قد جمع أعداداً كثيرة، فطلب مدداً من رسول الله ﷺ ، فأرسل إليه كتيبة فيها أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح، ودارت الحرب، فانهزمت "قضاعة" وعاد عمرو بالجيش منصورين وقد غنموا غنائم كثيرة.

وبعد موقعة ذات السلاسل أرسل النبي ﷺ عمراً إلى "سواع" لهدم صنم هناك تعبده هذيل، فهدمه عمرو، ثم أرسله النبي ﷺ بكتاب لدعوة "جيفر" ملك عُمان والبحرين وأخيه "عبّاد" إلى الإسلام، فبدأ عمرو بـــ "عباد" وهو الأصغر، وكان هذا ذكاء من عمرو، لأن الصغير أقرب إلى حسن الإصغاء والطاعة، فاقتنع عباد وأسلم، ثم دخل عمرو على جيفر، ودعاه للإسلام، فوجده عنيداً صعباً، فظل عمرو يحاوره في ذكاء وحسن لباقة حتى أقنعه ودخلت عمان والبحرين في الإسلام دون قتال، فكان جزاء هذا التوفيق أن عقد النبي ﷺ لعمرو ولاية الزكاة على عمان والبحرين، يأخذها من الأغنياء ويردها على الفقراء وله نصيب "العاملين عليها".

عمرو في حروب الردة

ظل عمرو على ولاية الزكاة في عمان والبحرين، حتى توفي النبي ﷺ وتولى أبو بكر رضي الله عنه الخلافة، فارتدت بعض القبائل العربية عن الإسلام، ومنعت الزكاة، وأعلنت الحرب على خليفة رسول الله ﷺ ، وكانت "قضاعة" من هذه القبائل، فجهز أبو بكر أحد عشر لواء لحرب المرتدين، وجعل عمراً أميراً على أحد هذه الألوية، وأمره أن يسير إلى قضاعة لمحاربتهم وردهم إلى الإسلام، فقام عمرو بهذه المهمة خير قيام، وأبلى في تأديب قضاعة ومحاربهم أحسن البلاء، ولم يرجع عنهم إلا وقد أسلموا بحق، ودفعوا الزكاة، ورجعوا إلى حمى الإسلام.

جهاد عمرو في الشام

بعد إخماد فتنة المرتدين بدأ الخليفة أبو بكر يفكر في تأمين حدود الدولة الإسلامية، وفتح البلدان، وكان الروم بالشام يهددون الدولة الإسلامية، ويفكرون في الإغارة عليها، فجهز أبو بكر أربعة جيوش، كل جيش يتكون من ثمانية ألف جندي، وجعل على كل

جيش قائداً، وكلفه بمهمة في الشام، فكان عمرو أحد القادة، وكلفه أبو بكر بفتح فلسطين، ولكن الجيوش الأربعة عندما ذهبت إلى الشام وجدت الروم قد تجمعوا في مكان واحد قرب اليرموك، وعددهم يزيد عن مائتي مقاتل، فرأى عمرو أن تجتمع جيوش الإسلام جميعاً، ويطلب مدداً من خليفة رسول الله ﷺ فوافق أمراء الجيش على ذلك، وأمده أبو بكر بأربعة آلاف جندي على رأسهم خالد بن الوليد، واشتبك المسلمون مع الروم في موقعة اليرموك الشهيرة، وكان لعمرو بن العاص فيها دور كبير وبارز رغم أنه لم يكن القائد، وتم النصر العظيم للمسلمين في اليرموك، وكانت هذه مقدمة لفتح الشام كلها بعد ذلك، وبعد انتهاء معركة اليرموك جاء الخبر بوفاة أبي بكر وتولي عمر بن الخطاب للخلافة، فأرسل عمر يطلب من عمرو استكمال فتح فلسطين، وكان حاكمها يسمى "أرطبون" فقال عمر قولته المشهورة: رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب. فقام عمرو ومعه ثمانية آلاف جندي بفتح السواحل الفلسطينية كلها، ففتح قِنَّسْرِين وحلب وأنطاكية وقيسارية ثم نزل "غزة" فبعث إليها حاكمها الروماني أن يرسل له رجلاً يكلمه، فقام عمر وذهب إليه بنفسه متخفياً، وكلمه دون أن يخبره أنه الأمير، فأعجب حاكم الرومان بكلامه وفصاحته، وأعطاه جائزة وبعث إلى البواب بأن يقتله إذا مر عليه ويأخذ ما معه، فلما خرج عمرو من عنده، مر برجل من نصارى "غسان" فعرفه، فقال له: يا عمرو قد أحسنت الدخول فأحسن الخروج. ففهم عمرو قولته، فعاد إلى حاكم الروم، وأخبره أنه أعجب بالجائزة، ولكنها لا تكفي أبناء عمه العشرة، وعرض عليه أن يأتيه بهم جميعاً حتى يعطيهم مثله، فرضي وفرح، ووجدها فرصة أن يقتل عشرة بدلا من واحد، فأرسل إلى البواب أن يتركه، فخرج عمرو سالماً بهذا الحيلة الذكية، ثم قاد جيشه وفتح غزة، ثم تم فتح بيت المقدس صلحاً بحضور الخليفة عمر بن الخطاب بعد أن فر حاكمها الروماني إلى مصر.

فتح مصر

بعد أن تم فتح الديار الشامية تطلعت نفس عمرو رضي الله عنه إلى فتح مصر، فأرسل إلى أمير المؤمنين يطلب منه الإذن في فتح مصر، فتردد عمر بن الخطاب أول الأمر خوفاً على أرواح المسلمين، ولكن عمراً أقنعه بأن فتح مصر يستهدف درء الخطر، والقضاء المبرم على الروم حتى لا يفكروا في العودة إلى الشام، فاقتنع عمر، وأذن له في فتح مصر، ولكنه أخبره بأنه سيرسل له كتاباً آخر وهو في الطريق، فإن كان قد دخل مصر فليستمر على بركة الله وإلا فليرجع، فسار عمرو بالجيش، وكان على دراية بمصر وأهلها لكثرة سفره إليها، فسار من طريق الساحل إلى العريش، وعلم بوصول كتاب عمر، فأخر مقابلة الرسول حتى دخل حدود مصر، ولم يجد عمرو بالعريش أحداً يصده من الروم، فتابع

سيره حتى وصل "الفرما" (بور سعيد الآن). فحاصر حاميتها، ثم فتحها في أقل من شهرين ثم سار حتى نزل "بلبيس" فتصدى له جيش الروم بعدد يزيد عن ثلاثة أضعاف الجيش الإسلامي، فهزمهم شر هزيمة، ثم دخل عمرو من ناحية الصحراء على "أم دنين" (الأزبكية) فاستولى عليها، وتجاوزها حتى وصل إلى مصر القديمة عند حصن " بابليون" (الفسطاط حالياً)، فحاصر المدينة، ولكن آلية السلاح التي كانت بيد المسلمين أضعف من أن تساعدهم على اقتحام الحصن المنيع، فترك عمرو كتيبة لحصار حصن بابليون، وأخذ باقي الجيش إلى صعيد مصر وأطراف الفيوم، وراح يوجه خطط القتال كما يشاء، ويفسد على الروم خططهم، ويجبرهم على تحويل معسكراتهم من مكان إلى آخر..

وطال حصار المسلمين لحصن بابليون، فأقلق ذلك الخليفة، فأرسل إلى عمرو مدداً به ثمانية آلاف من الجند فيهم الزبير بن العوام والقعقاع بن عمرو، فاستطاع الزبير أن يقتحم السور مع بعض الجند، ويفتح أبوابه، فدخل المسلمون حصن بابليون، وانتصروا على الروم في تلك الموقعة التي تعد من أهم المعارك التي خاضها المسلمون في مصر ضد الرومان، والتي لا تقل عن اليرموك والقادسية، فقد كانت هي المعركة الحاسمة في هزيمة الروم وانتصار المسلمين وفتح مصر، وبعدها توجه عمرو إلى حصار الاسكندرية ثم فتحها، وفتح المدن الساحلية، حتى فتح مصر كلها في أول المحرم سنة 21هـ الموافق ديسمبر سنة 641م.

أمير مصر الأول

بعد أن فتح عمرو مصر عينه الخليفة أميراً عليها، فعامل عمرو أهل مصر معاملة طيبة كريمة، تشهد بسماحة الإسلام؛ حيث ترك لهم حرية العبادة، وصان الكنائس والمعابد، كما بني المسجد الجامع (جامع عمرو) في الفسطاط والتي اتخذها عاصمة لمصر، وأقام العدل بين الرعية، مما جعل الناس يطلقون ألسنتهم بالثناء والمديح، ودخل أهل مصر في دين الله أفواجاً عن حب واقتناع بعظمة الإسلام، وقام عمرو في مصر بأعمال إدراية وإصلاحية كثيرة، فبنى مقياس حلوان، ومقياس أسوان، وأشرف بنفسه على صيانة الجداول والجسور وترفق في جميع أموال الجزية وخراج الأرض، فوزعها على ثلاثة أقساط في العام، وأعطى منها المرضى وكبار السن، وتم على يديه فتح الخليج الذي سماه: "خليج أمير المؤمنين" بين النيل والبحر الأحمر، فكان ممراً صالحاً للسفن بين مصر والحجاز، وقد عرف عمرو بالرحمة على رعيته عموماً حتى أنه لما أراد بناء مدينة الفسطاط وجد يمامة قد بنت عشاً لها أعلى فسطاطه، فطلب أن يبقى الفسطاط حتى يكبر أولادها وتطير على فراخها، أما حادثة ابنه الذي ضرب القبطي (وكان ذلك المصري قد سبق ابن عمرو في

سباق عام، فقال له: أتسبق ابن الأكرمين؟! وضربه) فتلك حادثة فردية، وقد ذكر التاريخ أن عمراً لم يعلم بما حدث حتى وصل الأمر إلى عمر بن الخطاب فأقام العدل والقصاص، ولم يذكر أن عمراً عاتب هذا القبطي أو عاقبه بعد ذلك، بل كان عادلاً معه ومع جميع أهل مصر.

عزل عمرو وعودته

ظل عمرو بن العاص رضي الله عنه والياً على مصر حتى استشهد الفاروق عمر وتولى الخلافة عثمان بن عفان، فعزل عمراً وولى مكانه عبد الله بن سعد بن أبي سرح، فذهب عمرو إلى فلسطين، واقام في دار له هناك، يعبد الله جل جلاله، واعتزل الحياة السياسية، ومضت سنوات طوال وعمرو في فلسطين، حتى ظهرت فتنة كبيرة كان وراءها بعض المنافقين واليهود وأعداء الإسلام، واستشهد عثمان رضي الله عليه وسلم في هذه الفتنة، وقام نزاع بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما، فأرسل معاوية إلى عمرو بن العاص ليقف معه ضد علي رضي الله عنه، وأغراه بأن يعطيه ولاية مصر خالصة له، فاستشار عمرو ولديه عبد الله ومحمداً، فأشار عبد الله عليه أن يرفض ذلك، بينما أشار محمد بالموافقة، فتردد عمرو في أمره ثم عزم على مناصرة معاوية رضي الله عنه والوقوف بجانبه، وبالفعل وقف معه في حرب صفين، وكان هو صاحب فكرة رفع المصاحف على أسنة الرماح عندما وجد أن جيش علي رضي الله عنه قد اقترب من النصر، كما كان هو مندوب معاوية رضي الله عنه في التحكيم، وبعد ذلك زاد الخلاف في جيش علي رضي الله عنه ، وخرج عليه بعض الناس الذين سموا بالخوارج، وقام ثلاثة من الخوارج يريدون قتل علي ومعاوية وعمرو، فقُتِل علي رضي الله عنه ، وأخطأ قاتل معاوية فلم يصبه إلا إصابة بسيطة شفي منها معاوية، ولم يخرج عمرو في تلك الليلة للصلاة وخرج بدلاً منه خارجة بن حزافة فقتل، فقال الذي قتله: "أردت عمراً وأراد الله خارجة" وانتهى الأمر بأن أصبح معاوية رضي الله عنه خليفة المسلمين، فأنجز وعده لعمرو، فعاد الأمير عمرو بن العاص إلى ولاية مصر مرة ثانية، فأعطى أهلها العدل والرحمة والحب، وساق الله على يديه الخير والنماء.

وفاة عمرو

ظل عمرو رضي الله عنه يحكم مصر ثلاث سنوات بعد عودته إليها حتى تجاوز الثمانين من عمره، فمرض مرض الموت، فبكى، وحول وجهه إلى الحائط، وتذكر إسلامه، وجهاده مع رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء من بعده، وتمنى أن لو كان مات قبل وقوع الفتنة، ثم رفع

بصره إلى السماء وهو يبكي، وقال: اللهم لا قوي فانتصر ولا بريء فأعتذر، ولا مستكبر بل مستغفر، وإلا تدركني برحمة أكن من الهالكين. ثم راح يردد: لا إله إلا الله. فما زال يقولها حتى مات، وكان ذلك ليلة عيد الفطر سنة 43هـ (664م)، ودفن رضي الله عنه بجوار جبل المقطَّم بالقاهرة.

أشبال التوحيد

الحمد لله رب العالمين..والصلاة والسلام على إمام المربين .. المبعوث رحمة للعالمين .. سيدنا محمد .. وعلى اله وصحبه أجمعين .. أما بعد ..

فلم يعد يخفى على كل ذي بصيرة ما تبذله أنظمة الكفر العالمي وأذنابهم من جهود ضخمة في سبيل إفساد أجيال المسلمين المتعاقبة .. وما ذلك إلا لخوفهم من أن تتصل هذه الأجيال الناشئة بأسلافهم ممن ملكوا هذه الدنيا بأيديهم بعد أن أخرجوها من قلوبهم .. فطوعوا أنفسهم لنصرة دينهم .. فذلت لهم رقاب الجبابرة..

وإيمانا منا نحن إخوانكم في منبر التوحيد والجهاد أن تنشئة هذه الأجيال على عقيدة الإسلام وأخلاقه؛ على هذا النبع الصافي – توحيد وجهاد – إيمانا منا أن ذلك لا بد أن يكون من أولويات الدعاة المربين .. وان ذلك هو أشد على الكفار من رميهم بالنبل .. فقد شرعنا بنشر هذه الرسائل

الموجهة لأشبال التوحيد .. والتي نسأل الله أن تكون عونا لكافة إخواننا واخواتنا في تنشئة ذلك الجيل الفريد..

فإلى أشبال التوحيد .. نهدي هذه الكلمات..

والله من وراء القصد

منبر التوحيد والجهاد
www.tawhed.ws
www.alsunnah.info
www.almaqdese.net

سلسلة القادة والفاتحون

فاتح بلاد المشرق

قتيبة بن مسلم

إعداد

أحمد حسن عرابي



بسم الله الرحمن الرحيم

ما كسرت له راية، ما هزم من أحد، أسلم على يديه خلق كثير.. فتح بلاد ما وراء النهر.. أدخل الإسلام في بخاري وسجبتان وسمرقند..

وصل إلى بلاد الصين، وفرض عليهم الجزية.. إنه أمير المشرق قتيبة بن مسلم الباهلي.. ولقتيبة مآثر كثيرة، ومواقف عديدة، وأخلاق حميدة.. وجاهد بلسانه وسيفه ليرفع راية الإسلام في بلاد المشرق.

وفي هذا الكتاب سوف نتعرف على جهاد قتيبة لفتح بلاد المشرق.

نشأة فاتح

شهدت الدولة الأموية مولد كثير من الأبطال الفاتحين، كان على رأسهم قتيبة بن مسلم بن عمرو بن الحصين الباهلي، ولد قتيبة سنة 49هـــ، وكان أبوه كبير القدر عند أمير المؤمنين يزيد بن معاوية. واسم قتيبة مأخوذ من القتب، وهو إكاف البعير. وكان هذا الاسلام هو السر في فتح خراسان، يروى أن قتيبة بن مسلم لما أوقع بأهل خوارزم، وأحاط بهم، أتاه رسولهم، فسأله عن اسمه، فقال: قتيبة: اسمي قتيبة، فقال ذلك الرسول: لست بفاتحها، إنما يفتحها رجل اسم إكاف، فقال قتيبة: إذاً فلا يفتحها غيري، واسمي إكاف. نشأ قتيبة بن مسلم نشأة عسكرية، وكان مع ذلك دمث الأخلاق، طويل الروية، محباً للشعر وعالماً به.

حاكم بلاد الري

علم أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان قدرة قتيبة القيادية، وأمانته، فأسند إليه بلاد الري وهي إحدى بلاد فارس، وكان قتيبة وقتها في الثلاثينيات من عمره. غادر قتيبة دمشق في طريقه إلى بلاد الري والأمل يحدوه أن يواصل فتوحات الإسلام في بلاد آسيا. وفي سنة ست وثمانين جاءه الأمر من الحجاج بن يوسف أن ينطلق لفتح بلاد خراسان. وكانت هذه الرسالة هي نقطة البداية لقتيبة بن مسلم في بلاد المشرق. جهز قتيبة الجيش، ونادي داعي الجهاد: حي على الجهاد.. وزحفت جحافل الإيمان نحو بلاد خراسان.. وكانت خاضعة لأهل الترك.. وقبل أن يصل قتيبة إلى المدينة أرسل رسله ليعرضوا على أهل مرو وخراسان الإسلام أو الجزية. رفض أهل الترك عرض قتيبة بالإسلام، ودفع

الجزية، فكان لا بد من الحرب، ودقت طبول الحرب، وكانت الدائرة على أهل الكفر، وفتح الله لقتيبة كثيراً من الحصون والقلاع.

درس في القيادة

لما فتح الله لقتيبة بلاد خراسان، ونشر فيها الإسلام، وأبقى فيها من يقوم على أمرها، أمر قتيبة باقي جنده بالرجوع ليبدأ رحلة جديدة في فتوحاته.. وتقدم قتيبة الجيش والغنائم، وسبق في العودة، فلما علم بذلك الحجاج أرسل له رسالة يعلمه فيها آداب الانصراف من المعارك، قال فيها: إذا كنت قاصداً بلاد العدو فكن في مقدمة الجيش، وإذا قفلت راجعاً فكن في ساقة (خلف) الجيش.. والحكم في ذلك أن يكون القائد حامياً للجيش من أن ينالهم أحد من العدو، وهذا الدرس علمه القادة العسكريون من أهل الإسلام من السنة النبوية في الجهاد.

الطريق إلي بخارى

لم يتنسّم قتيبة بن مسلم نسائم الراحة بعد فتح حصون خراسان إلا قليلاً، ثم عاود الكرة على أهل الكفر، وجهز الجيوش لفتح بلاد ما وراء النهر.. وكان قتيبة كلما فتح حصناً، دخل الرعب إلى البلاد المجاورة، حتى وصل قتيبة إلى مدينة بيكند في بخارى، فاستنجد ملك البلاد بالجنود من البلاد المجاورة من الأتراك، فتكون عندهم جيش كبير صعّب مهمة قتيبة بن مسلم، وأبطأ خبر الفتح على أمير المشرق الحجاجِ، فأمر الناس في المساجد بالدعاء والتضرع حتى يفتح الله لقتيبة بن مسلم. وكان لقتيبة بن مسلم عين من العجم يسمى "تندَر"، طلب أهل بخارى من "تندر" أن يذهب إلى قتيبة، ويخذله عن قتالهم في مقابل مال أخذه "تندر" فذهب "تندر" إلى قتيبة، وقال له: يقدم عليك — أيها الأمير — عامل يحمل أمراً بعزلك من عند الحجاج، فانصرف بالناس، فأمر قتيبة بقتل ذلك الجاسوس، ثم عزم على قتال أهل بخارى، فما انتصف النهار حتى أنزل الله عليهم النصر، وهزمت الترك، واتبعهم المسلمون يقتِّلون فيهم ويأسرون، حتى طلب أهل بخارى الصلح، فصالحهم قتيبة، وترك في بلادهم بقية من الجنود، وانصرف راجعاً إلى خراسان. وفي طريق عودته سمع قتيبة بخبر نقض أهل بخارى العهد، وقتلهم للمسلمين.

عاد قتيبة مسرعاً إلى بخارى ليؤدب الذين نقضوا العهد، وقتلوا المسلمين، فاقتحم قتيبة حصنهم، وقاتلهم وأسر منهم، حتى وقع في يده الرجل الذي كان سبباً في قتل المسلمين. فقال ذلك الخائن: أنا أفتدي نفسي بخمسة أثواب قيمتها ألف ألف، فأشار الأمراء على قتيبة بقبول ذلك الفداء، وإطلاق ذلك الخائن، ولكن زهد قتيبة في الغنائم جعله يرفض

رأي الأمراء، وقال: لا والله لا أروِّع بذلك الخائن مسلماً مرة ثانية، وأمر بضرب عنقه نكالا بما قدم وعبرة لغيره. وكان فتح بخارى سبباً في انتشار الإسلام في تلك البلاد والبلاد المجاورة لها.

عقوبة الخائنين

بعد أن فتح الله لقتيبة مدينة بخارى، هرب ملكها "وردان" واستنجد بالترك، واتفق ملك الترك مع ملك مدينة الطالقان، واتفق ملك الترك مع باقي ملوك بلاد ما وراء النهر على نقض العهود مع قتيبة، واتفقوا على تجميع الجيوش للقضاء على قتيبة وإخراج المسلمين من بلادهم. وعلى الجانب الآخر جلس قتيبة يشاور أصحابه.. كيف يمكنهم التصدي لتلك الجموع.. واستقر رأي الأمراء على خوض المعركة الفاصلة التي تعيد للمسلمين هيبتهم في نفوس الملوك الخائنين، والتقى الجمعان، واستطاع المسلمون بشجاعتهم القضاء على جموع الكفر، وظل قتيبة يطارد ملوك الكفر وعلى رأسهم ملك الترك الأعظم "يزك خان" حتى أمكنه الله منه، ثم أرسل قتيبة يستشير الحجاج أمير الشرق في أمر ملك الترك الأعظم، فأشار عليه الحجاج بقتله جزاء خيانته، ولكن بعض الأمراء أشاروا على قتيبة بعدم قتل ملك الترك الأعظم.. جلس قتيبة يفكر قليلاً في الخيانة التي ارتكبها الملك، والدماء المسلمة التي سفكها، فقال بعزم: والله إن لم يبق في عمري إلا ما يسع ثلاث كلمات لقلت: اقتلوه.. اقتلوه.. اقتلوه، فقتل ملك الترك الأعظم مع سبعمائة من الملوك والأمراء الخائنين في ساعة واحدة، ثم أعاد قتيبة فتح مدينة طالقان والفارياب وسمنجان.. وهكذا عاد الهدوء إلى بلاد ما وراء النهر بعد قتل الملوك الخائنين.

فتح كابل

واصل قتيبة بن مسلم زحفه إلى بلاد آسيا، ففتح شومان وكشّ ونسَف، ثم فتح مدينة سسبتان ومدينة رتبيل، وظل قتيبة يزحف حتى وصل إلى سمرقند، وفتح الشاش ومدينة فرغانة، وحاصر كابل، وفتحها الله عليه.. وهكذا وصل قتيبة إلى حدود بلاد الصين. وقد سجل الشعراء هذه الانتصارات التي وصلت إلى حدود الصين في كتاب سحر البيان، فقال الشاعر يصف شجاعة قتيبة وجنوده:

فـــسل الفـــوارس في خجـــن	دة تحـــت مرهفـــة العـــوالي
هـــل كنـــت أجمعهـــم إذا	هزمـــوا وأقـــدم في قتـــالي
أم كنـــت أضـــرب هامـــة ال	عـــاتي وأصـــبر للنـــزال

هـــذا وأنـــت قريـــع قـــي س كلـــه ضـــخم النـــوال
تمّـــــت مـــــروءتكم ونـــــا غـــى عـــزكم غلـــب الجبـــال
ولقـــد تـــبين عـــدل حكمـــك فـــــيهم في كــــل مــــال

قتيبة في الصين

في سنة 96هـ وصل قتيبة بن مسلم بجنوده إلى مدينة كاشغر، وهي جزء من بلاد الصين، ولما علم ملك الصين بوصول جيش المسلمين إلى بلاده تعجب من إقدامهم وشجاعتهم، وهو يعلم أنه يملك من الجنود والسلاح ما يستطيع به أن يغزو العالم، وزاد من تعجبه الرسل الذين أرسلهم قتيبة بن مسلم إلى ملك الصين يبلغوه عزم قتيبة على دخول الصين، وقتالهم وإسرهم، أو دفع الجزية، أو الدخول في الإسلام.. وبلاد الصين كما نعرف محاطة بسور عظيم عليه تسعون باباً، كما كانت بلاد الصين من أعظم البلاد وأكبرها، حتى قيل: إن بلاد الهند على اتساعها كالشامة في بلاد الصين، وسكان الصين لا يحتاجون إلى السفر في البلاد الأخرى لكثرة أموالهم وطعامهم، في حين أن غيرهم محتاج إليهم لما عندهم من الخير الكثير.. وكانت البلاد المجاورة للصين تؤدي إلى ملك الصين الخراج لكثرة جنده وسلاحه. ولما دخل رسل قتيبة إلى ملك الصين قال لهم ملك الصين: من أنتم وماذا تريدون؟ فقال الرسل: نحن رسول قتيبة بن مسلم، وهو يدعوك إلى الإسلام، فإن لم تفعل فالجزية، فإن لم تفعل فالحرب. فغضب الملك، وأمره أن ينصرف رسل قتيبة إلى دار الضيافة، وفي اليوم التالي دعاهم ملك الصين، ثم قال لهم: كيف تكونون في عبادة إلهكم؟ فقام رسل قتيبة وصلوا أمام ملك الصين، فلما ركعوا وسجدوا ضحك منهم الملك، ثم قال لهم: كيف تكونون في بيوتكم، فلبس رسل قتيبة ملابس العمل في البيت، فأمرهم الملك بالانصراف، وفي اليوم الثالث: قال لهم ملك الصين: كيف تدخلون على ملوككم، فلبس رسل قتيبة الملابس الفاخرة والعمائم، ودخلوا على ملك الصين، فقال لهم ملك الصين: ارجعوا، فرجعوا. ثم جلس ملك الصين مع أمرائه فقال لهم: كيف رأيتم هؤلاء؟ فقالوا: هذه الملابس التي لبسوها أشبه بهيئة الرجال. ثم أمر الملك بإحضار رسل قتيبة، فلما دخلوا عليه قال لهم: كيف تلقون عدوكم، فشد رسل قتيبة السلاح، ولبسوا الخوذ، وتقلدوا السيوف، وأخذوا الرماح، وركبوا خيولهم، فلما نظر إليهم ملك الصين رأى أمثال الجبال، ودخل في قلوب أهل الصين الخوف والرعب من رسل قتيبة، فقال ملك الصين لأصحابه الأمراء: كيف ترونهم؟ فقالوا: ما رأينا كهؤلاء قط. وفي مساء ذلك اليوم أرسل ملك الصين في طلب رسل قتيبة، وقال لهم: ابعثوا إليّ زعيمكم وأفضلكم، فذهب إليه هبيرة، فقال له الملك: قد رأيتم عظيم ملكي، وليس أحد

يمنعكم مني، وأنتم بمنزلة البيضة في كفي، وأنا سائلك عن أمر، فإن تصدقني وإلا قتلتك، فقال هبيرة: سل. فقال ملك الصين: لم صنعتم ما صنعتم من زي أول يوم، والثاني والثالث؟ فقال هبيرة: أما زينا أول يوم فهو لباسنا في أهلنا ونسائنا، وأما ما فعلنا في اليوم الثاني فهو زينا إذا دخلنا على ملوكنا، وأما زينا في اليوم الثالث فهو إذا لقينا عدونا. فقال الملك: ما أحسن ما دبرتم دهركم، فانصرفوا إلى قتيبة، وقولوا له ينصرف راجعاً عن بلادي، فإني قد عرفت حرصه، وقلة أصحابه، وإلا بعثت إليكم من يهلككم عن آخركم؟ فقال هبيرة: تقول لقتيبة هذا؟!! فكيف يكون قليل الأصحاب من أول خيله في بلادك وآخرها في منابت الزيتون (تونس)؟!! وكيف يكون حريصاً من خلّف الدنيا قادراً عليها وغزاك في بلادك؟!! وأما تخويفك إيانا بالقتل، فإنا نعلم أن لنا أجلا إذا حضر فأكرمُها عندنا القتل، فلسنا نكرهه ولا نخافه. فقال ملك الصين: فما الذي يرضي صاحبكم، فقال هبيرة: إن قتيبة قد حلف أن لا ينصرف حتى يطأ أرضك، ويختم ملوكك، ويجبي الجزية من بلادك. فقال ملك الصين: أنا أبرّ يمينه، وأخرجه منها.. أرسل إليه بتراب من أرضي، وأربع غلمان من أبناء الملوك، وأرسل إليه ذهباً كثيراً وحريراً وثياباً صينية.

وافق قتيبة على اقتراح ملك الصين، فأرسل ملك الصين إلى قتيبة صحافاً من ذهب، فيها من تراب الصين ليطأه قتيبة، وبعث بجماعة من أولاده وأولاد الملوك ليختم قتيبة رقابهم، وبعث أيضاً بمال الجزية. وهكذا برّ قسم قتيبة، وقبل قتيبة الجزية من الصين.

عقيدة قتيبة الجهادية

كان قتيبة بن مسلم ذا عقيدة جهادية، منطلقة من فهمه الصحيح للإسلام.. وهذا واضح في توجيهه لأصحابه حيث كان يقول لهم عند الخروج للجهاد: إن الله أحلكم هذا المحل ليعز دينه، ويذب بكم عن الحرمات، ويزيد بكم المال استفاضة، والعدو وقماً (ذلة وحسرة) وقد وعد نبيه ﷺ النصر بحديث صادق، وكتاب ناطق، فقال تعالى: {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ} [الصف: 9]. ووعد المجاهدين في سبيله أحسن الثواب، وأعظم الذخر عنده، فقال: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لاَ يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلاَ نَصَبٌ وَلاَ مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَطَؤُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلاَ يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ} [التوبة: 120] ثم أخبر عمن قتل في سبيله أنه حي مرزوق، فقال: {وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ} [آل عمران: 169]. فصدِّقوا موعود ربكم، ووطنوا أنفسكم على أقصة أثر وأمضى ألم وإياي.

صاحب الأخلاق والمواقف

كان قتيبة بن مسلم صاحب أخلاق كريمة تأبى الحرام من الأفعال والأقوال، فقد سمع قتيبة رجلاً يعتاب آخر، فقال قتيبة: أمسك عليك فوالله لقد مضغت مضغة طالما لفظها الكرام. ولما وقف قتيبة بجنده ينتظرون الهجوم على العدو سأل عن محمد بن واسع، فقالوا له: هو ذاك في الميمنة جامح على قوسه يبصبص بأصبعه (يحركه) نحو السماء، فقال قتيبة: تلك الأصبع أحب إليّ من مائة ألف سيف شهير وشاب طرير.

وداعا قتيبة

مات أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك، وجاء بعده سليمان بن عبد الملك، وكان سليمان يكره قتيبة بن مسلم، فأراد قتيبة الاستقلال عن أمير المؤمنين والاستقرار في البلاد التي فتحها.

وأرسل إلى أمير المؤمنين كتاباً يعزيه في أخيه ويهنئه بولايته.. فرد عليه أمير المؤمنين بكتاب فيه ولايته على خراسان، ولكن وكيع بن حسان التميمي عجل بحياة قتيبة، فقتله قبل أن يصل كتاب أمير المؤمنين. حزن أهل خراسان على موت قتيبة حتى إن أحد الأعاجم عاب على قتل قتيبة فقال: يا معشر العرب قتلتم قتيبة، ووالله لو كان فينا لجعلناه في تابوت، واستفتحنا به غزونا. ومات رحمه الله في مدينة فرغانة سنة 96هـ. رحمه الله وجزاه خيراً على ما قدم للإسلام.

أشبال التوحيد

الحمد لله رب العالمين..والصلاة والسلام على إمام المربين .. المبعوث رحمة للعالمين .. سيدنا محمد .. وعلى اله وصحبه أجمعين .. أما بعد ..

فلم يعد يخفى على كل ذي بصيرة ما تبذله أنظمة الكفر العالمي وأذنابهم من جهود ضخمة في سبيل إفساد أجيال المسلمين المتعاقبة .. وما ذلك إلا لخوفهم من أن تتصل هذه الأجيال الناشئة بأسلافهم ممن ملكوا هذه الدنيا بأيديهم بعد أن أخرجوها من قلوبهم .. فطوعوا أنفسهم لنصرة دينهم .. فذلت لهم رقاب الجبابرة..

وإيمانا منا نحن إخوانكم في منبر التوحيد والجهاد أن تنشئة هذه الأجيال على عقيدة الإسلام وأخلاقه؛ على هذا النبع الصافي – توحيد وجهاد – إيمانا منا أن ذلك لا بد أن يكون من أولويات الدعاة المربين .. وان ذلك هو أشد على الكفار من رميهم بالنبل .. فقد شرعنا بنشر هذه الرسائل

الموجهة لأشبال التوحيد .. والتي نسأل الله أن تكون عونا لكافة إخواننا واخواتنا في تنشئة ذلك الجيل الفريد..

فإلى أشبال التوحيد .. نهدي هذه الكلمات..

والله من وراء القصد

منبر التوحيد والجهاد
www.tawhed.ws
www.alsunnah.info
www.almaqdese.net

سلسلة القادة والفاتحون

فاتح أفريقيا

عقبة بن نافع

إعداد

أحمد حسن عرابي



بسم الله الرحمن الرحيم

لقد خرّجت مدرسة الإسلام عباقرة في كل مجالات الحياة، ففي المجال العسكري كان عقبة بن نافع أعظم فاتح مسلم عرفته أفريقيا، فهو فاتح زويلة وغدامس وفزّان وبلاد البربر وباغاية وبلاد الزاب وطنجة وبنى مدينة القيروان.. وبعد ذلك الجهاد وقف عقبة بن نافع رحمه الله على شواطىء المحيط الأطلنطي، وقال: يا رب لولا هذا البحر لمضيت مجاهداً في سبيلك.

وفي هذا الكتاب سوف نتعرف على حياة عقبة بن نافع، والانتصارات التي صنعها للإسلام في أفريقيا.

مولد قائد

ولد عقبة بن نافع قبل هجرة النبي ﷺ بسنة واحدة، أي سنة 621هـ، وكان أبوه هو نافع بن عبد القيس الفهري القرشي، وكان نافع من الذين آذوا السيدة زينب بنت رسول الله ﷺ عندما كان مشركاً؛ لما خرجت مهاجرة لأبيها ﷺ في المدينة، حيث نخس نافع الجمل الذي كانت تركبه زينب رضي الله عنها فسقطت، وكانت حاملاً، فألقت ما في بطنها، ولكن نافعاً أسلم بعد ذلك، وحسن إسلامه، وخرج مع عمرو بن العاص لفتح مصر، ثم أرسله عمرو إلى برقة، فعاش فيها حتى خلافة عثمان رضي الله عنه ثم مات.

نشأة عسكرية

نشأ عقبة بن نافع محباً للجهاد في سبيل الله، و لم لا والكلمات الأولى التي كانت تطرق أذنه صباحاً ومساء: الجهاد.. الشهادة.. الفتح.

ولذا أحب عقبة بن نافع – رضي الله عنهما – الفروسية، وتدرب على فنون القتال وحمل السلاح والمبارزة به، ولسان حاله يقول: عسى أن أكون في يوم من الأيام بين القادة أو الفاتحين.

وظلت أحلام عقبة بن نافع في الجهاد والقيادة تراوده منذ صغره حتى صار شاباً.

أول الجهاد

أراد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه فتح بلاد الشام، فأرسل جيشاً بقيادة عمرو بن العاص رضي الله عنه لفتحها، وكانت هذه فرصة لعقبة بن نافع ليظهر فيها حبه للجهاد في سبيل الله، والمهارات الحربية التي أتقنها منذ الصغر، وليمشى أول خطوة في طريق القيادة والفتح.

ولما كانت هناك صلة قرابة بين عقبة بن نافع وعمرو بن العاص – فهو ابن خالته – فقد استأذن عقبة بن نافع من عمرو في الخروج معه للجهاد في بلاد الشام، فأذن له عمرو، وجعله في مقدمة الجيش، مع أن سنه لم يبلغ بعد العشرين.

واستطاع عقبة بن نافع أن يظهر في حروب الشام براعة في القتال، مما حدا بعمرو بن العاص إلى اختيار عقبة بن نافع ليصاحبه فيما بعد في فتح مصر.

عقبة في مصر

بعد النجاح الذي أظهره عقبة بن نافع كمجاهد في حروب الشام اصطحبه عمرو بن العاص رضي الله عنه ليكون معه في فتح مصر، وتم فتح مصر سنة 20هـــ.

وما هي إلا أيام حتى أسند عمرو بن العاص – بموافقة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب – إلى عقبة بن نافع أول مهمة حربية له في بلاد أفريقيا، وكانت المهمة هي تأمين الحدود الجنوبية لمصر.

انطلق عقبة بن نافع على رأس قوة من المسلمين لقتال أهل النوبة، حتى أخضعهم للإسلام، ثم ذهب عقبة بن نافع إلى منطقة زويلة على الحدود الغربية لمصر ففتحها.

وبذلك أصبحت الحدود الجنوبية والغربية لمصر آمنة.

عقبة في ليبيا

ازدادت ثقة القائد عمرو بن العاص بابن خالته عقبة بن نافع، فأسند إليه مهمة استطلاع أحوال أهل برقة، تمهيداً لنشر الإسلام بها، وإدخالها في حوزة الإسلام.

قام عقبة بن نافع بهذه المهمة على خير وجه، ثم أرسل إلى عمرو بن العاص يخبره أن أهل برقة ينتظرون من يخلصهم من طغيان الحكم البيزنطي، فخرج عمرو بن العاص على

رأس جيش، وتم فتح برقة، وعين عمرو بن العاص عقبة بن نافع قائداً للحامية التي في برقة.

وظل الأمر على ما هو عليه حتى مات أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ثم تولى عثمان بن عفان رضي الله عنه أمر المؤمنين، فعزل عمرو بن العاص، وعين بدلا منه عبد الله بن سعد بن أبي سرح رضي الله عنه فلما وصل عبد الله بن سعد إلى مصر، وعلم أن عقبة بن نافع قائداً لحامية برقة أقرّه على منصبه اعترافاً بفضل عقبة.

وهكذا حمى عقبة بن نافع مصر من عدوان الروم على الحدود الغربية، وأصبحت برقة فيما بعد القاعدة التي ينطلق منها الفتح الإسلامي نحو أفريقيا.

عقبة الداعية

استغل عقبة بن نافع فترة توقف الفتح الإسلامي نحو أفريقيا، ليبدأ العمل الدعوي، فظل عقبة بن نافع في برقة عدة سنوات يعلم الناس تعاليم الإسلام، واللغة العربية، والقرآن الكريم، وأسلم على يديه كثير من البربر.

فتح أفريقيا

كان همُّ القادة المسلمين هو نشر الإسلام في الأرض، وإخراج الناس من ظلمات الشرك والكفر إلى نور الإسلام. ولذلك فقد واصل عبد الله بن سعد فتوحات عمرو بن العاص، فبعد موافقة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه بمواصلة الفتح الإسلامي.

خرج عبد الله بن سعد بجيشه إلى برقة، فاستقبله قائدها عقبة بن نافع، وانضم الجيشان تحت قيادة عبد الله بن سعد بهدف الزحف إلى أفريقيا، للقضاء على الروم، ونشر الإسلام.

وكانت المعركة الفاصلة بين المسلمين والروم هي معركة "سبيطلة" وهناك تجلت بطولة عقبة بن نافع، حيث أبلى في هذه المعركة بلاء حسناً حتى تم لهم فيها النصر.

عقبة يعتزل الفتنة

بعد انتهاء معركة "سبيطلة" عاد عقبة بن نافع مع الجيش إلى مصر، وفي هذه الفترة حدثت اضطرابات في الدولة الإسلامية، فقد قتل أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه

ونشبت الفتنة بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما وانشغل المسلمون عن مواصلة الفتوحات، و لم يشترك عقبة بن نافع في الفتنة بسيفه أو لسانه، بل استثمر هذه الفترة في التفرغ للعبادة، وطلب العلم.

وظل عقبة بن نافع على هذه الحال حتى جاءت سنة 40هـــ، وتولى معاوية بن أبي سفيان خلافة المسلمين.

وكانت أول قرارات أمير المؤمنين معاوية هي عودة عمرو بن العاص لولاية مصر، بدلا من عبد الله بن سعد بن أبي سرح.

وكانت عودة عمرو بن العاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لولاية مصر فرصة عظيمة لعقبة بن نافع رضي الله عنهما، لأنها تمثل إشارة الانطلاق نحو استئناف الفتوحات الإسلامية في أفريقيا.

عقبة يستأنف الجهاد

استدعى عمرو بن العاص ابن خالته عقبة بن نافع ليبلغه باستئناف الفتوحات الأفريقية.

بدأ عقبة بن نافع في تجهيز الجيش ليبدأ العمليات العسكرية، وفي شوال من سنة 43هـــ توفي عمرو بن العاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وتولى أمر مصر خلفاً له معاوية بن خديج.

وظل عقبة يجاهد مع معاوية بن خديج عدة سنوات، لم يتم فيها تحقيق فتح يذكر.

وفي سنة 49هـــ جاء خطاب لعقبة بن نافع من أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان، يخبره أنه قد اختاره لفتح أفريقيا، وأنه جهز له جيشاً عدته عشرة آلاف.

وعلى الفور قام عقبة بن نافع بدعوة الناس في برقة إلى الجهاد في سبيل الله لفتح أفريقيا، فاستجاب له عدد كبير من أهل برقة، ولأول مرة في التاريخ الإسلامي يتكون جيش إسلامي من العرب والبربر، غايته إعلاء كلمة الله.

واتجه الجيش بقيادة عقبة بن نافع إلى قبيلة ودّان، التي ارتدت عن الإسلام، فهزمهم عقبة بن نافع، ثم أحضر ملكهم وقطع أذنه تأديباً له على محاربة المسلمين، وعدم دفع الجزية.

فتح فزان

بعد أن فتح الله لعقبة بن نافع مدينة ودّان، قرر عقبة فتح مدينة فزان، وهي مدينة تبعد عن ودّان بمسيرة ثمانية أيام.

وتحرك الجيش في اتجاه فزان، وقبل أن يصلوا للمدينة أرسل عقبة بن نافع من يدعو أهل فزّان إلى الإسلام، أو دفع الجزية، فلما عرض رسول عقبة بن نافع على أهل فزّان الإسلام استجابوا للإسلام، إلا أن ملك المدينة رفض الدخول في الإسلام، ودفع الجزية، فأمر عقبة بن نافع بعض أفراد الجيش أن يحضروا ملك فزّان ماشياً على قدميه، وظن ملك فزّان أنه سيقتل.

وعندما وصل ملك فزّان إلى خيمة عقبة بن نافع فوجىء ملك فزّان بعقبة يطمئنه ويقول له: إننا لا نعذب الأسرى، ولكن ما فعلناه بك كان تأديباً لك حتى تدفع الجزية.

وأطلق عقبة بن نافع سراح الملك بعد أن وافق على دفع الجزية للمسلمين، وكانت ثلاثمائة وستين بعيراً.

ومكث عقبة بن نافع في فزّان عدة شهور، يعلم أهلها الإسلام والقرآن.

فتح مدينة خاور

بعد أن التقط عقبة بن نافع أنفاسه في فزّان، قرر استئناف الجهاد والفتوحات، وكان الدور على مدينة خاور، وهي مدينة ذات أسوار عالية، وحصون منيعة.

ظل عقبة بن نافع محاصراً للمدينة شهراً كاملاً، ثم قرر الانسحاب عنها، ورجع عقبة بجيشه مبتعداً عن المدينة مسيرة ثلاثة أيام، فأمن أهلها، وفتحوا الحصون.

لم يكن انسحاب عقبة بن نافع عن المدينة إلا خطة عسكرية تفتَّقَ عنها ذهن عقبة.. فقد قرر عقبة بن نافع العودة إلى المدينة، ولكن من طريق آخر لم يسلكه أحد من قبل، وسار عقبة بجيشه إلى مدينة خاور، وفي الطريق فوجىء عقبة بأمر كاد أن يفسد عليه خطته، فالطريق الذي سلكه عقبة لا يوجد به ماء، وكاد العطش أن يفتك بعقبة وجيشه، ولم يجد عقبة بداً من التضرع إلى الله – تعالى –، فقام وصلى ركعتين، ودعا الله أن ينقذه وجيشه من العطش.

وما إن فرغ عقبة بن نافع من صلاته حتى وجد الماء ينبعث من تحت حافر فرسه، فحمد عقبة الله على الماء، وشرب، وشرب الجيش، والخيل، وسمي المكان الذي انبعث منه الماء بـــ "ماء فرس".

وجدّد عقبة بن نافع عزمه على السير إلى مدينة خاور لفتحها، وتم فتح المدينة.

مدينة القيروان

فكّر عقبة بن نافع في بناء مدينة تكون مقراً لإقامة الجيوش الإسلامية، فوقع اختياره على مكان يسمى "قمونية" وكان هذا المكان يمتاز بطيب الهواء، وجودة التربة، إلا أنه كان مليئاً بالوحوش والأفاعي، فوقف عقبة بن نافع في وسط المكان، ثم قال: يا أهل الوادي إنا نازلون – إن شاء الله – فاظعنوا (ارحلوا)، فلم يبق في الوادي وحش ولا أفعى إلا رحل، ثم بنى عقبة بن نافع المدينة وسماها "القيروان".

نهاية الجهد

مكث عقبة بن نافع في مدينة القيروان يعيد تنظيم الجيش، ثم انطلق من جديد ليواصل فتوحاته، فاتجه إلى مدينة الزاب ففتحها، وأصبح الطريق إلى طنجة سهلاً.

وبعد أن استراح عقبة يوماً قرر الزحف إلى طنجة، وقبل أن يصلها عرض أهلها عليه الصلح، فصالحهم.

ثم وقف عقبة أمام مياه المحيط الأطلنطي وقال: اللهم اشهد أني بلغت المجهود، ولولا هذا البحر لمضيت في البلاد، أقاتل من كفر بك حتى لا يعبد أحد من دونك.

استشهاد عقبة

بعد أن فتح الله – تعالى – لعقبة بن نافع مدينة طنجة، أمر عقبة قادة الجيش بالرجوع إلى القيروان، ولم يبق معه في طنجة إلا ثلاثمائة رجل، فلما علمت كاهنة جبال أوراس بقلة عدد الرجال حول عقبة اتصلت بزعماء القبائل، وحشدت لعقبة بن نافع آلاف الجنود.

وفي مكان يسمى "تهوذة بشمال أفريقيا دارت رحى معركة بين جند الرحمن بقيادة عقبة بن نافع، وأعوان الشيطان، وما هي إلا ساعات حتى وضعت الحرب أوزارها، واستشهد عقبة بن نافع، وكل من كان معه، وكان ذلك سنة ثلاث وستين من الهجرة..

وفقدت الأمة أمير الجهاد في أفريقيا، ولكن ما زالت رَحِمَ أمة الإسلام تنجب لنا مجاهدين في كل وقت يسيرون على درب عقبة، رحم الله فاتح أفريقيا عقبة بن نافع.

أشبال التوحيد

الحمد لله رب العالمين..والصلاة والسلام على إمام المربين .. المبعوث رحمة للعالمين .. سيدنا محمد .. وعلى اله وصحبه أجمعين .. أما بعد ..

فلم يعد يخفى على كل ذي بصيرة ما تبذله أنظمة الكفر العالمي وأذنابهم من جهود ضخمة في سبيل إفساد أجيال المسلمين المتعاقبة .. وما ذلك إلا لخوفهم من أن تتصل هذه الأجيال الناشئة بأسلافهم ممن ملكوا هذه الدنيا بأيديهم بعد أن أخرجوها من قلوبهم .. فطوعوا أنفسهم لنصرة دينهم .. فذلت لهم رقاب الجبابرة..

وإيمانا منا نحن إخوانكم في منبر التوحيد والجهاد أن تنشئة هذه الأجيال على عقيدة الإسلام وأخلاقه؛ على هذا النبع الصافي – توحيد وجهاد – إيمانا منا أن ذلك لا بد أن يكون من أولويات الدعاة المربين .. وان ذلك هو أشد على الكفار من رميهم بالنبل .. فقد شرعنا بنشر هذه الرسائل

الموجهة لأشبال التوحيد .. والتي نسأل الله أن تكون عونا لكافة إخواننا واخواتنا في تنشئة ذلك الجيل الفريد..

فإلى أشبال التوحيد .. نهدي هذه الكلمات..

والله من وراء القصد

منبر التوحيد والجهاد
www.tawhed.ws
www.alsunnah.info
www.almaqdese.net

سلسلة القادة والفاتحون

فاتح بلاد المغرب

موسى بن نُصَير

إعداد

أحمد حسن عرابي



بسم الله الرحمن الرحيم

استطاع موسى بن نصير أن يدخل الإسلام في كثير من بلاد أفريقيا وبلاد الأندلس، ومع ذلك كان يردد في جموع الناس: ولقد لو انقاد الناس لي لقدتهم حتى أوقفهم على روميّة، ثم ليفتحنها الله على يدي.

كان موسى بن نصير مع جهاده وشجاعته صاحب علم، وذا خلق رفيع، وهذا هو السر في انقياد الناس له والتأثر به.

ومع كثرة جهاد موسى بن نصير أتاح الله له التعرف على عادات وتقاليد الناس في بلاد كثيرة فتحها مما كان له أكبر الأثر في حياة موسى بن نصير.

وفي هذا الكتاب سوف نقترب من موسى بن نصير لنتعرف على صفاته وأخلاقه وجهاده في فتح بلاد الأندلس.

مولد فاتح

أسر جيش المسلمين الذي أرسله الخليفة أبو بكر الصديق في إحدى الحروب رجلاً نصرانياً يسمى نصراً، صغّر المسلمون اسمه فأصبح نصيراً، أسلم نصير، وتزوج وأنجب في العام التاسع عشر الهجري ولداً سماه موسى.

ولد موسى مسلماً، وعاش مجاهداً، وكان فاتحاً عظيماً لا يعرف الناس مثيلا له.

تعلم موسى بن نصير كعادة الصبيان وقتها القرآن فحفظه، وحفظ قدراً من السنة النبوية الشريفة، وبعض الآداب واللغة.

ولكن تعليمه الأكبر، وحظه الأوفر كان في التدريب على الجهاد والفروسية والقيادة، حتى شب موسى بن نصير فارساً قوياً مبارزاً، لا يعرف اللعب واللهو، يحب الجد والاجتهاد، يتعرف على سير المجاهدين أمثال خالد بن الوليد وأبي عبيدة بن الجراح وغيرهم من الأبطال الذين فتحوا بلاد الشام.

القرب من القادة

تهيأت لموسى بن نصير فرصة عظيمة لكي يكون قريباً من القادة الأمويين، فقد كان والده نصير يعمل قائداً لحرس أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان، وكان نصير مقرباً من أمير المؤمنين، مما أتاح الفرصة لابنه موسى لأن يكون قريباً من كبار قادة الفتح الإسلامي، وكان موسى بن نصير يرى عن قرب ما يحدث في دار الخلافة دون أن يعترضه أحد، فقد رأى والده في كثير من المرات وهو يرتدي ملابس الجهاد في سبيل الله، متقلداً سيفه، خارجاً لنشر الإسلام في ربوع الأرض، كان هذا المشهد – مشهد المجاهدين الفاتحين – يراه موسى بن نصير بن الحين والحين، متمنياً أن يأتي عليه اليوم الذي يصبح فيه أحد هؤلاء المجاهدين الفاتحين.

القائد البحري

لم يطل بموسى بن نصير الزمن، حتى جاءت الساعة التي استدعى فيها إلى قصر الخلافة، حيث يمكث أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان، وهناك كانت المفاجأة.. لقد أسند أمير المؤمنين معاوية إلى القائد الشاب موسى بن نصير قيادة جيش بحري لإعادة غزو "قبرص" التي سبق أن فتحها معاوية في سنة 27هـ، فانطلق موسى بن نصير يقود الجيش، ويشق عباب البحر حتى وصل إلى قبرص، فنجح في غزوها، وتم له الفتح، وبنى هناك حصوناً، ثم ظل هناك والياً.

وفي سنة 53هـ، أُمِرَ موسى بن نصير بإعداد جيش لغزو جزيرة رودِس التي تقع في البحر المتوسط، فاستجاب موسى بن نصير لأمر الجهاد، وخرج إلى جزيرة رودس وتم له الفتح. زادت منزلة موسى بن نصير في قلب أمير المؤمنين معاوية، فأوصى ابنه من بعده بموسى بن نصير خيراً.

ابن نصير في مصر

حرص خلفاء بني أمية على الاستفادة من موسى بن نصير، لا سيما أنه ذو رأي وحزم، وخبرة بالحرب والقيادة.

فها هو أمير المؤمنين مروان بن الحكم يستخلص الخلافة من أنياب الأسد، بعد معركة مرج راهط، ويحافظ على وحدة المسلمين تحت راية واحدة.. ولكي يدعِّم مروان موقفه، أمر قائده وابنه عبد العزيز بن مروان أن يتجهز بجيش ويسير به إلى مصر، ليأخذ له البيعة من أهلها، ويصبح هو والياً عليها.

استجاب عبد العزيز لأمر أمير المؤمنين، وخرج من بلاد الشام متوجهاً إلى مصر، فكان لا بد لعبد العزيز أن يستعين بأهل الخبرة والرأي في الحروب، فاستعان بصديقه موسى بن نصير، و لم يأت عام 65هـــ حتى كانت مصر تحت السيطرة الأموية، وكان الوالي عليها من قبل الخليفة عبد العزيز بن مروان، وكان وزير عبد العزيز هو موسى بن نصير صديق عمره.

ابن نصير في العراق

ظل موسى بن نصير في مصر بجوار صديقه الأمير عبد العزيز بن مروان، يشير عليه بالنصح في الصغيرة والكبيرة في السلم والحرب، حتى فتح الله على عبد الملك بن مروان بن الحكم بلاد العراق، وكان أمير المؤمنين عبد الملك يعلم جيداً من خلال حديث أخيه عبد العزيز من هو موسى بن نصير، وماذا يعني أن يكون موسى وزيراً لرجل الدولة، فكانت لموسى بن نصير منزلة عند أمير المؤمنين عبد الملك، مما حدا بأمير المؤمنين أن يرسل إلى أخيه عبد العزيز يطلب منه أن يبعث إليه موسى بن نصير ليستعين به أخوه بِشر ابن مروان في بلاد العراق.

انطلق موسى بن نصير يلبي نداء الواجب.. انطلق إلى البصرة حيث الأمير بشر بن مروان والي البصرة، وظل موسى وزيراً لبشر بن مروان يساعده في إدارة الولاية، ورئيساً لديوان العراق، ومكن الله – تعالى – لموسى بن نصير، وثبّت أركان وزارته، فلم يمض وقت طويل حتى عيّن الخليفة أخاه بشراً على الكوفة، و لم يجد أمير المؤمنين من يخلف بشراً على البصرة خيراً من موسى بن نصير، فأصبح موسى بن نصير أمير البصرة خلفاً لبشر بن مروان.

قائد أفريقيا

غضب الأمير عبد العزيز بن مروان على قائده في بلاد أفريقيا حسان بن النعمان، فعزله عن ولاية شمال أفريقيا، و لم يجد من يحل محل حسان إلا صديق عمره موسى بن نصير أمير البصرة، فأرسل عبد العزيز بن مروان إلى أمير المؤمنين عبد الملك يستأذنه في الاستعانة بموسى بن نصير.

ترك موسى بن نصير ولاية البصرة، وانطلق إلى شمال أفريقيا والأمل يحدوه أن يتابع الفتوحات التي بدأها أسلافه من أمثال عقبة بن نافع.. وتمكن موسى بن نصير بفضل حماسه للجهاد من تجهيز جيش إسلامي قوي قادر على النصح والفتح.

وقبل أن يسير موسى بن نصير بجنوده نحو الفتح الإسلامي لشمال أفريقيا وقف بينهم خطيباً، فقال بعد أن حمد الله، وأثنى عليه: إنما أنا رجل كأحدكم، فمن رأى مني حسنة، فليحمد الله، وَلْيَحضْ على مثلها، ومن رأى مني سيئة فلينكرها، فإني أخطىء كما تخطئون، وأصيب كما تصيبون.

وانطلق جيش المسلمين نحو المعركة، وكتب الله لهم النصر على العدو.

جهاد البربر

في عام 79هـ انطلق موسى بن نصير لجهاد البربر الذين أثاروا الرعب في بلاد المغرب، بعد رحيل الأمير السابق حسان بن النعمان.

واستطاع موسى بن نصير بعد جهاد مرير أن يهزم قبائل البربر التي خرجت عن طاعة المسلمين، ولما وصل موسى بن نصير إلى مدينة القيروان، صلى بالجند صلاة شكر لله على النصر، ثم صعد المنبر، وخطب في المسلمين قائلا: وأيم الله لا أريد هذه القلاع والجبال الممتنعة حتى يضع الله أرفعها، ويذلّ أمنعها، ويفتحها على المسلمين، بعضها أو جميعها، أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين.

وانتشرت جيوش موسى بن نصير في بلاد المغرب شماله وشرقه، تفتح الحصون المنيعة، حتى أخضع الله القبائل المغربية للمسلمين، وظل موسى بن نصير يعلم أهل المغرب الإسلام، ويبث فيهم الدين والقرآن.

عجائب بلاد المغرب

لما فتح الله لموسى بن نصير بد المغرب، سار بجنده حتى وصل إلى مدينة تدعى مدينة النحاس، بقرب المحيط الأطلنطي في أقصى بلاد المغرب، فلما أشرفوا على هذه المدينة رأوا بريق شرفاتها وحيطانها من مسافة بعيدة، فلما اقتربوا من المدينة أرسل موسى بن نصير رجلا من أصحابه، ومعه مائة فارس من الأبطال، وأمره أن يدور حول سور هذه المدينة، لينظر هل لها باب أو منفذ إلى داخلها، فسار رجال موسى بن نصير حول هذه المدينة يوماً وليلة، ثم رجعوا إلى موسى بن نصير، وأخبروه أنهم لم يجدوا باباً ولا منفذاً إلى داخلها، فأمر موسى بن نصير جنده أن يجمعوا ما معهم من المتاع، وأن يضعوه بعضه فوق بعض، ثم أمر رجلا فصعد على سور المدينة، فلما صعد ذلك الرجل، ورأى ما في داخلها لم يملك نفسه فسقط في داخلها فمات، ثم صعد رجل آخر، فحدث معه ما حدث مع

سابقه، ثم امتنع الناس من الصعود إلى سور المدينة، ولم يعلم موسى بن نصير ما بداخل هذه المدينة، فأمر بالرحيل عن المدينة، وانطلق موسى بن نصير بجنده إلى بحيرة قريبة من المدينة، فوجد في هذه البحيرة جراراً كبيرة، فأمر بفتح إحداها، فوجد فيها رجلا قائماً، فقال له موسى: ما أنت؟ فقال: أنا رجل من الجن، وأبي محبوس في هذه البحيرة.. حبسه سليمان، فأنا أجيء إليه في كل سنة مرة أزوره. فقال له موسى بن نصير: هل رأيت أحداً خارجاً من هذه المدينة أو داخلا إليها، فقال الجان: لا إلا أن رجلا يأتي كل سنة إلى هذه البحيرة يتعبد عليها أياماً، ثم يذهب فلا يعود إلى مثلها، فأمر موسى بن نصير بعدم فتح باقي الجِرَار، وإلقائها في مكانها في البحيرة.

صلاة الاستسقاء

لما دانت بلاد أفريقيا لموسى بن نصير، ومكث فيها عدة شهور يرتب جيوشه، أصيبت البلاد بقحط شديد، كاد الناس فيه أن يهلكوا.

فأمر موسى بن نصير الناس بالصلاة والصوم والصلاح، ثم فرق بين أهل الذمة والمسلمين، وفرق بين البهائم وأولادها، ثم خرج موسى بن نصير إلى الصحراء، ثم أخذ موسى بن نصير يدعو الله، ويتضرع بالبكاء حتى انتصف النهار، ثم صلى وخطب، فقال له أحد أتباعه: ألا دعوت لأمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك، فقال موسى بن نصير: هذا موطن لا يذكر فيه إلا الله عز وجل، ولم ينته موسى بن نصير من دعائه حتى أنزل الله المطر برحمته، فسقوا وأغيثوا.

فتح طنجة

بعد أن تم فتح بلاد المغرب، تطلع موسى بن نصير إلى فتح طنجة، التي كانت تحت سيادة الأمير الرومي "يوليان".

انطلق موسى بن نصير بجنده إلى طنجة، فحاصرها طويلا حتى فتحها الله عليهم، فأرسل موسى بن نصير إلى صديقه عبد العزيز بن مروان يبشره بالفتح، فلما ذهبت الرسل إلى أمير المؤمنين تبشره بالفتح فرح فرحاً شديداً لانتصارات موسى، وكافأه على انتصاراته.

فتح الأندلس

أخذت انتصارات موسى بن نصير تتابع، فقد أرسل موسى بن نصير ابنه عبد الله، ففتح جزيرة صقلية، وفي سنة 89هـ بعث موسى بن نصير عبد الله بن قرة إلى جزيرة سردينيا ففتحها.. وبدأ موسى بن نصير ينشر دين الله في المدن المفتوحة، وحكم بين أهل هذه البلاد بالعدل، لم يفرق بين عربي وأعجمي، فأحب الناس الإسلام، ودخلوا فيه أفواجاً.

ثم بدأ موسى بن نصير في تجهيز أسطول بحري استعداداً لفتح بلاد الأندلس، وبينما هو يفكر في هذا الأمر إذ جاءه رسول من قبل طارق بن زياد يخبره بأن الأمير "يوليان" عرض عليه أن يتقدم لغزو أسبانيا، وأنه على استعداد لمعاونة العرب في ذلك، وتقديم السفن لنقل الجنود المسلمين.

أرسل موسى بن نصير إلى أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك يستشيره في عرض "يوليان"، فرد عليه أمير المؤمنين بقوله: خضها أولا بالسرايا (يعني بقلة من الجنود حتى يعلم صدق "يوليان") ولا تغرِّر بالمسلمين في بحر شديد الأهوال.

ولما وصل رد أمير المؤمنين أرسل موسى بن نصير رجلا من البربر يسمى طريف بن مالك، في مائة فارس وأربعمائة رجل، فذهب طريف بن مالك إلى ساحل الأندلس، فنصره الله، ثم رجع إلى المغرب غانماً سالماً.

وفي شهر رجب من عام 92هـ جهز موسى بن نصير جيشاً بقيادة طارق بن زيادة، وانطلق طارق بالجيش إلى بلاد الأندلس، وعبر طارق المضيق الذي حمل اسمه بعد ذلك، ووصل إلى أرض الأندلس، وبعد عدة معارك استطاع طارق بن زياد أن يفتح الجزيرة الخضراء.

ولما علم الامبراطور "لذريق" بنزول المسلمين في أسبانبا أرسل جيشاً كبيراُ ليوقف زحف طارق بن زياد، فأرسل موسى إلى طارق خمسة آلاف رجلا على رأسهم طريف بن مالك.

والتقى طارق بجيشه مع جيش الامبراطور "لذريق" في شهر رمضان من عام 92هـ، واستمرت المعركة سبعة أيام، انتهت بانتصار المسلمين في معركة عرفت باسم "وادي الرباط".

ولما سمع موسى بن نصير بانتصار قائده طارق، عبر إليه على رأس جيش كبير، وظل موسى بن نصير يفتح بلاد الأندلس حتى خضعت جميعها للإسلام.

العودة إلي الوطن

أرسل أمير المؤمنين إلى موسى بن نصير يطلب رؤيته قبل موته، فتوجه موسى بن نصير إلى دمشق مع ما غنمه.

وفي يوم الجمعة، وبينما كان أمير المؤمنين الوليد على المنبر، دخل عليه موسى بن نصير، ومعه ثلاثون غلاماً من أبناء الملوك الذين أسرهم من أسبانيا، بالإضافة إلى الخدم والحشم، فلما نظر إليهم الوليد بهت، لما رأى على الأسرى من الحرير والجواهر والزينة، وجاء موسى بن نصير، فسلم على الوليد، وأمر الأسرى فوقفوا عن يمين المنبر وشماله، فحمد أمير المؤمنين الوليد الله، وأطال الدعاء والثناء حتى خرج وقت الجمعة، ثم نزل فصلى بالناس. ووقف موسى بن نصير أمام أمير المؤمنين ثم قال له: والله لو انقاد الناس لي لقدتهم حتى أُوقِفَهم على روميّة، ثم ليفتحنها الله على يدي.

لقاء الله

مات أمير المؤمنين الوليد، وتولى الخلافة سليمان بن عبد الملك، فأمر أمير المؤمنين سليمان موسى بن نصير أن يصحبه إلى الحج، ولكن موسى بن نصير لفظ أنفاسه الأخيرة أثناء رحلة الحج وكان ذلك سنة 99هـ، فرحم الله شيخ المجاهدين موسى بن نصير.

أشبال التوحيد

الحمد لله رب العالمين..والصلاة والسلام على إمام المربين .. المبعوث رحمة للعالمين .. سيدنا محمد .. وعلى اله وصحبه أجمعين .. أما بعد ..

فلم يعد يخفى على كل ذي بصيرة ما تبذله أنظمة الكفر العالمي وأذنابهم من جهود ضخمة في سبيل إفساد أجيال المسلمين المتعاقبة .. وما ذلك إلا لخوفهم من أن تتصل هذه الأجيال الناشئة بأسلافهم ممن ملكوا هذه الدنيا بأيديهم بعد أن أخرجوها من قلوبهم .. فطوعوا أنفسهم لنصرة دينهم .. فذلت لهم رقاب الجبابرة..

وإيمانا منا نحن إخوانكم في منبر التوحيد والجهاد أن تنشئة هذه الأجيال على عقيدة الإسلام وأخلاقه؛ على هذا النبع الصافي – توحيد وجهاد – إيمانا منا أن ذلك لا بد أن يكون من أولويات الدعاة المربين .. وان ذلك هو أشد على الكفار من رميهم بالنبل .. فقد شرعنا بنشر هذه الرسائل

الموجهة لأشبال التوحيد .. والتي نسأل الله أن تكون عونا لكافة إخواننا واخواتنا في تنشئة ذلك الجيل الفريد..

فإلى أشبال التوحيد .. نهدي هذه الكلمات..

والله من وراء القصد

منبر التوحيد والجهاد
www.tawhed.ws
www.alsunnah.info
www.almaqdese.net

سلسلة القادة والفاتحون

محرر الأقصى

الناصر صلاح الدين

إعداد

أحمد حسن عرابي



بسم الله الرحمن الرحيم

من للقدس الآن يخلصه من اليهود.. هل من صلاح؟ هل من ناصر؟

لو كان صلاح حياً الآن أكان يسكت.. أكان يخذل استغاثة الأقصى.. لا بلا شك، إن شجاعة صلاح الدين، وعزته بدينه جعلته يضحي بكل أمواله ليحرر القدس من الصيليبيين، وهذا لم يكن يتحقق إلا بعد توحيد صفوف الأمة، وجمع كلمتهم.

وفي هذا الكتاب نتعلم من صلاح الدين درس النصر على الأعداء، وتحرير الأوطان.

مولد بطل

كان نجم الدين أيوب والد صلاح الدين حاكماً على مدينة تكريت..

وذات يوم عاقب نجم الدين رجلاً نصرانياً، لأنه تعرّض لإحدى الجواري، فلما علم مجاهد الدين بهروز بهذا الخبر، كتب إلى نجم الدين أيوب يقول له: إن أباك كانت له علي خدمة، وإني أكره أن أسوءك، ولكن انتقل منها.

فخرج نجم الدين أيوب من مدينة تكريت ليلاً، وقبل خروجه من المدينة زفت له بشرى بمولود جديد قد ولد له، فتشاءم نجم الدين بمولده هذا؛ لأنه جاء عند فقده بلده وطنه، فقال له الناس: نحن نرى ما أنت فيه من التشاؤم بهذا المولود، فما يؤمِّنك أن يكون هذا المولود ملكاً عظيماً، فكان كما قالوا.

وقد سمى نجم الدين أيوب ابنه صلاح الدين يوسف، وكان مولد صلاح الدين يوسف بن نجم الدين أيوب في عام 532هـ (1137م).

نشأة فارس

نشأ صلاح الدين يوسف بن نجم الدين أيوب محباً للفروسية، مبارزاً، وقام على تدريبه على مبادىء الفروسية خيرة المدربين في ذلك الوقت.

لقد فرضت الظروف على صلاح الدين النشأة العسكرية؛ فهو أمير بن أمير، وعمه أيضاً أمير.

فقد التحق أبوه نجم الدين أيوب، وعمه أسد الدين شيركوه بخدمة عماد الدين زنكي بعد خروجهما من تكريت، وظل نجم الدين مقرباً من عماد الدين زنكي حتى تولى إمارة بعلبك، وأصبح أخوه أسد الدين شيركوه من أكبر قواد عماد الدين زنكي، وهكذا كبر صلاح الدين وهو يرى أباه أمير بعلبك، وعمه أسد الدين من قواد السلطان.

ولم يفت صلاح الدين يوسف بن نجم الدين أيوب أن يأخذ قسطاً وافراً من العلوم بجانب الفروسية والقيادة، فحفظ القرآن والحديث، وقرأ الفقه، وحفظ ديوان الحماسة لأبي تمام.

وهكذا شب صلاح الدين قائداً محباً للعلم وأهله عابداً لله.

أول مهمة حربية

طلب وزير مصر المخلوع شاور من السلطان نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي أن يرسل جيشاً قوياً على نفقة أهل مصر، للقضاء على الصليبيين الذين تعاونوا مع الوزير ضرغام..

وعلى الفور أمر السلطان نور الدين محمود أميره شيركوه بتجهيز الجيش، وخرج شيركوه من بلاد الشام وكان معه في مقدمة الجيش ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن نجم الدين أيوب.. حيث كانت هذه أول مهمة حربية رسمية لصلاح الدين.

انطلق جيش شيركوه نحو مصر، وقبل أن يصل الجيش إلى مصر، انسحب الصليبيون، ودخل صلاح الدين مع عمه شيركوه مصر، وأعادوا الوزير شاور إلى منصبه..

وبعد أن استقر الحال للوزير شاور واطمأن على وزارته قابل هذا الإحسان بالإساءة، ولم يدفع نفقات الحملة كما وعد السلطان نور الدين، وطالب شاور الأمير شيركوه بالانسحاب من مصر، ولكي يجبر شيركوه على الانسحاب تحالف مع الصليبيين.

وأقبلت جحافل الصليبيين المتعاونة مع جيش شاور نحو مصر، فاستشار شيركوه الأمراء، فكلهم أشاروا عليه بالرجوع لبلاد الشام لقلة عددهم أمام جحافل الصليبيين، ولم يوافق أحد على قتالهم إلا صلاح الدين ورجل آخر، فقد قال صلاح الدين يوسف بن نجم الدين أيوب: من خاف القتل والأسر فليقعد في بيته عند زوجته..

فلما رأى شيركوه ذلك قرر التصدي للصليبيين، وأظهر صلاح الدين في هذه المعركة شجاعة نادرة، وتم النصر لجيش شيركوه، ودخل شيركوه مصر، وكان أول شيء فعله صلاح الدين عند دخول مصر هو القضاء على الوزير الخائن شاور، وقال في ذلك الشاعر:

هيا لمصر حو يوسف ملكها

بأمر من الرحمن كان موقوتا

وما كان فيها قتل يوسف شاورا

يماثل إلا قتل داود جالوتا

وزير مصر

استقر صلاح الدين يوسف بن نجم الدين أيوب في مصر مع عمه شيركوه، الذي ما لبث أن توفي، فكان صلاح الدين بدلا منه.

وكان أول ما عمله صلاح الدين وزير مصر أن أسقط عن أهل مصر المكوس والضرائب، ثم أنشأ قلعة الجبل، وسور القاهرة، ونشر صلاح الدين العدل بين الناس، وتقرب إلى الشعب المصري، وعطف عليه حتى أحبه شعب مصر، ولم يأت على صلاح الدين عام 566هـ حتى قضى على المذهب الشيعي في مصر، ونشر المذهب السني، وأزال الخلاف المذهبي بين المسلمين، وبنى صلاح الدين مدارس للفقه السني الشافعي منه والمالكي.

وكذلك استطاع صلاح الدين في فترة قليلة أن يقضي على كل عملاء الصليبيين في مصر، وعلى رأسهم "الطواش" مؤتمن الخلافة.

ففي يوم من الأيام وقعت في يد صلاح الدين رسالة مختومة بخاتم الخلافة، تحرض هذه الرسالة الصليبيين على دخول مصر، وطرد صلاح الدين منها، وعلم صلاح الدين يوسف بن نجم الدين أيوب أن الطواش وراء هذه الرسالة، فأمر بالقبض عليه وقتله.

فلما سمع أهل السودان بقتل الطواش غضبوا، لأن الطواش كان منهم، فاجتمعوا لقتال صلاح الدين، وإخراجه من مصر، ولكن شجاعة صلاح الدين حالت دون مرادهم، فهزمهم وطردهم خارج البلاد.

توحيد الصف

كان هم صلاح الدين الأكبر هو توحيد صف المسلمين للتصدي للصليبيين.. الذين عاثوا في الأرض فساداً، واستوطنوا القدس الشريف..

وسنحت الفرصة لصلاح الدين لتوحيد صف المسلمين عندما مات الملك نور الدين محمود ملك الشام، وتولى ابنه وكان ضعيفاً، فأرسل صلاح الدين يوسف بن نجم الدين أيوب أخاه فأخضع أهل اليمن.. ثم سار صلاح الدين بنفسه إلى بلاد الشام، فاستولى عليها، ودانت له البلاد، وأصبحت معظم بلاد المسلمين تحت قبضته.

أقام صلاح الدين يوسف بن نجم الدين أيوب العدل في البلاد، ونشر العلم، ورفع راية الجهاد، وتحولت ديار الإسلام إلى ما يشبه الثكنات العسكرية التي يتدرب فيها المواطنون على الحرب والجهاد، وأطلق على صلاح الدين لقب "الملك الناصر".

الطريق إلي القدس

مرض الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن نجم الدين أيوب مرضاً شديداً، وأوشك خلال مرضه ذلك على الموت، ويئس منه الأطباء، فأشار عليه القاضي الفاضل أن ينذر نذراً لله، فنذر صلاح الدين إن شفاه الله أن يجعل همته كلها في قتال الصليبيين، ولا يقاتل مسلماً، ونذر أن يجعل أكبر همه فتح بيت المقدس، ولو أنفق في سبيل الله جميع ما يملكه من الأموال والذخائر..

وأقسم الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن نجم الدين أيوب أن يقتل "البرنس" صاحب الكرك بيده، لأنه نقض العهد؛ وذلك حينما اعتدى على قافلة ذاهبة من مصر إلى حج بيت الله الحرام، فنهب أموال القافلة كلها، وضرب رقاب من فيها من رجال ونساء وهو يقول: أين محمدكم.. دعوه ينصركم.

وما هي إلا ساعات حتى شفى الله – تعالى – صلاح الدين، واسترد عافيته كاملة، فعزم على الوفاء بنذره لله تعالى، فأذّن داعي الجهاد: حي على الجهاد.. حي على الجهاد..

وتقدم الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن نجم الدين أيوب جيش المسلمين، وسار إلى البلاد الخاضعة للصليبيين، وأخذ يحررها مدينة بعد مدينة حتى وصل إلى بيت المقدس، حيث تحصن الصليبيون داخل المدينة، واضطر صلاح الدين لحصار المدينة، حتى تم له الفتح سنة 583هـ (1188م)..

بعد الفتح عقد صلاح الدين مع الصليبيين صلحاً حقناً للدماء، ودخل بيت المقدس ظافراً منتصراً رافعاً رايات النصر والتوحيد، ومكبراً.. الله أكبر.. الله أكبر..

لم يقتل صلاح الدين طفلا أو امرأة أو شيخاً كبيراً، بل عامل الصليبيين بالرحمة والشفقة، وأطلق صلاح الدين سراح الشيوخ والضعفاء، ولم تنهب جيوش صلاح الدين بيتاً، أو تخرب زرعاً، أو تقطع شجراً، وحينما جمعت غنائم الحرب وقسمت بين الجنود والقادة، تنازل صلاح الدين عن نصيبه للفقراء من النصارى، وجعل الأسرى الذين كانوا من حظه أحراراً.

رحمة صلاح الدين

بينما كان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن نجم الدين أيوب سائراً ذات يوم في بعض طرقات مدينة بيت المقدس قابله شيخ نصراني كبير السن، يعلق صليباً ذهبياً في رقبته، فقال له: أيها القائد العظيم لقد كتب لك النصر على أعدائك، فلماذا لم تنتقم منهم، وتفعل معهم مثل ما فعلوا معك؟ فقد قتلوا نساءكم وأطفالكم وشيوخكم عندما غزوا بيت المقدس.. فقال له صلاح الدين: أيها الشيخ يمنعني من ذلك ديني الذي يأمرني بالرحمة بالضعفاء، ويحرم علي قتل الأطفال والشيوخ والنساء..

فقال له الشيخ: وهل دينكم يمنعكم من الانتقام من قوم أذاقوكم سوء العذاب؟

فأجابه صلاح الدين: نعم إن ديننا يأمرنا بالعفو والإحسان، وأن نقابل السيئة بالحسنة، وأن نكون أوفياء بعهودنا، وأن نصفح عند المقدرة عمن أذنب.

فقال الشيخ: نعم الدين دينكم، وإني أحمد الله على أن هداني في أيامي الأخيرة إلى الدين الحق. ثم سأل: وماذا يفعل من يريد الدخول في دينكم؟

فأجابه صلاح الدين: يؤمن بأن الله واحد لا شريك له، وأن محمداً ﷺ عبده ورسوله، ويفعل ما أمر الله به، ويبتعد عما نهى الله عنه.

فأسلم الشيخ من فوره، ثم ذهب إلي بيته ودعا أبناءه إلى الإسلام فأسلموا وأسلم أبناؤه.

شهامة صلاح الدين

ذات يوم كان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن نجم الدين أيوب يتفقد أحوال الجنود، فرأى امرأة من الصليبيين تبكي وتضرب على صدرها، فسألها عن قصتها، فقالت: دخل المسلمون خيمتي، وأخذوا ابنتي الصغيرة، فنصحني الناس أن أذهب إليك، وقالوا: إن السلطان صلاح الدين رجل رحيم، فدمعت عينا صلاح الدين، وأمر أحد الجنود أن يبحث عن الصغيرة، وعمن اشتراها، ويدفع له ثمنها ويحضرها، فما مضت ساعة حتى وصل الفارس والصغيرة على كتفه، ففرحت الأم فرحاً شديداً، وشكرت صلاح الدين على مروءته وشهامته وحسن صنيعه.

رجل السلام

لما علم ملوك أوربا بانتصار صلاح الدين، ودخوله بيت المقدس، وقتله صاحب الكرك، أجمع ملوك أوربا على غزو ديار الإسلام، وإعادة بيت المقدس لأيدي الصليبيين، وتزعم راية الجهاد المقدس ضد المسلمين ملك انجلترا آنذاك "رتشارد قلب الأسد".

وتحركت فرسان أوربا بحراً حتى وصلت إلى عكا، فدخلتها بسبب خيانة واليها، ثم واصلت الزحف إلى بيت المقدس، ولكن صلاح الدين دافع عن بيت المقدس، ورفض الاستسلام لحصار الصليبيين حتى يئس "رتشارد" وتراجع عن حصار بيت المقدس، وطلب من صلاح الدين عقد صلح، فوافق صلاح الدين، وأوقف القتال، وعقد صلح الرملة، وعاد ملوك أوربا يجرون أذيال الخيبة.

لقاء الله

بعد أن أتم الله النصر للمسلمين، وخلص بيت المقدس من الصليبيين، عاد صلاح الدين إلى دمشق، وهناك مرض، واشتد عليه المرض، وفي ليلة الأربعاء السابع والعشرين من صفر سنة 589هـ أصيب صلاح الدين بغيبوبة طويلة، فجلس بجواره أحد المقرئين، ليقرأ عنده القرآن، فلما وصل القارىء إلى قوله تعالى: {لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ} تبسم وجه صلاح الدين، وانتقلت روحه إلى رضوان الله، ودفن في قلعة دمشق، فجزاه الله عن بيت المقدس والمسلمين خير الجزاء.

أشبال التوحيد

الحمد لله رب العالمين..والصلاة والسلام على إمام المربين .. المبعوث رحمة للعالمين .. سيدنا محمد .. وعلى اله وصحبه أجمعين .. أما بعد ..

فلم يعد يخفى على كل ذي بصيرة ما تبذله أنظمة الكفر العالمي وأذنابهم من جهود ضخمة في سبيل إفساد أجيال المسلمين المتعاقبة .. وما ذلك إلا لخوفهم من أن تتصل هذه الأجيال الناشئة بأسلافهم ممن ملكوا هذه الدنيا بأيديهم بعد أن أخرجوها من قلوبهم .. فطوعوا أنفسهم لنصرة دينهم .. فذلت لهم رقاب الجبابرة..

وإيمانا منا نحن إخوانكم في منبر التوحيد والجهاد أن تنشئة هذه الأجيال على عقيدة الإسلام وأخلاقه؛ على هذا النبع الصافي – توحيد وجهاد – إيمانا منا أن ذلك لا بد أن يكون من أولويات الدعاة المربين .. وان ذلك هو أشد على الكفار من رميهم بالنبل .. فقد شرعنا بنشر هذه الرسائل

الموجهة لأشبال التوحيد .. والتي نسأل الله أن تكون عونا لكافة إخواننا واخواتنا في تنشئة ذلك الجيل الفريد..

فإلى أشبال التوحيد .. نهدي هذه الكلمات..

والله من وراء القصد

منبر التوحيد والجهاد
www.tawhed.ws
www.alsunnah.info
www.almaqdese.net

سلسلة القادة والفاتحون

ملك الملثمين

يوسف بن تاشفين

إعداد
منصور علي عرابي



بسم الله الرحمن الرحيم

يوسف بن تاشفين اللمتوني، أبو يعقوب، سلطان المغرب الأقصى، وأول من دعي بأمير المسلمين.

ولد في صحراء المغرب، وولاه ابن عمه ابو بكر بن عمر اللمتوني إمارة البربر، وبايعه أشياخ المرابطين، فقوي أمره، واستولى على مدينة فاس، ثم استقل بالمغرب، وبنى مدينة مراكش سنة 465هـ.

وفي سنة 475هـ استنجد به المعتمد بن عباد لقتال الفرنجة في إشبيلية بالأندلس، فزحف إليه بجيش كبير، وانتصر على الفرنجة في موقعة "الزّلاقة" سنة 479هـ، ثم استولى على باقي مدن الأندلس، فشمل سلطانه المغربين الأقصى والأوسط وجزيرة الأندلس.

وفي هذا الكتاب نتعرف على أمير المسلمين، وسلطان المغرب، يوسف بن تاشفين رحمه الله.

من اليمن.. إلي المغرب

لما انتشر الإسلام في جزيرة العرب دخلت قبائل حمير من أهل اليمن في الإسلام، وكانت قبيلة لمتونة إحدى هذه القبائل. وفي عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه بدأت الفتوحات الإسلامية، وكانت البداية ناحية الشام، فشاركت قبائل حمير اليمنية في الفتوحات، وانتقلت إلى الشام حتى فتحت معظم بلاد الشام.. وفي عهد الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه أراد عمرو بن العاص رضي الله عنه فتح مصر، وأقنع عمر رضي الله عنه بذلك، فوافق، فتوجه عمرو بن العاص رضي الله عنه بالجيوش الإسلامية من الشام إلى مصر ومعه قبائل حمير، وراح يقاتل الرومان حتى تم له فتح مصر وبعض البلاد من شمال إفريقية..

ثم انتقلت قبائل حمير إلى المغرب مع القائد موسى بن نصير، واستقر المقام بقبيلة لمتونة في صحراء المغرب، في الجنوب بين بلاد البربر وبلاد السودان؛ وذلك لأنهم كانوا يحبون الانفراد والعزلة.. فدخلوا تلك الصحراء الجنوبية واستوطنوها.

المولد والنشأة

عاشت قبيلة لمتونة في الصحراء الجنوبية ببلاد المغرب، وكان فيهم رجل صالح، شجاع، اسمه تاشفين بن إبراهيم، رزقه الله بولد سماه يوسف، وكان ذلك في سنة 410هـ (1019م).

وكان الطفل يوسف بن تاشفين أسمر اللون، معتدل القامة، نحيف الجسم، تربى على الفروسية والشجاعة، وتعلم القراءة والكتابة، وكان يحب الإسلام حباً شديداً، ويرى أنه الدين الحق الذي يجب أن يسود العالم كله..

ولما صار يوسف بن تاشفين شاباً، حمل السيف، وراح يشارك قومه في حروبهم ضد القبائل المعادية للإسلام، وقتال عبدة الأصنام والمشركين في جنوب المغرب.. وقد صارت قبيلته لمتونة صاحبة الرياسة بين قبائل صنهاجة البربرية.

أمير الملثمين

لما بلغ يوسف بن تاشفين من العمر 37 عاماً، وكان ذلك سنة 447هـ، قام رجل فقيه اسمه "عبد الله بن ياسين" بتكوين جماعة من الناس كان هدفهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ونشر تعاليم الإسلام، ووقف يحيى بن عمر زعيم قبيلة لمتونة إلى جانب عبد الله بن ياسين الفقيه، وزادت أفراد الجماعة حتى بلغت أكثر من ألف رجل، وقام يحيى بتأسيس دولة المرابطين، وسموا بالملثمين، لأنهم كانوا يضعون لثاماً على وجوههم، وكانت بيوتهم من الشعر والوبر.

واستطاع يحيى بن عمر اللمتوني جمع الكثير من الناس، وراحوا يستولون على البلاد المجاورة، وينشرون تعاليم الإسلام، ويقاتلون عبدة الأصنام ويقضون على الفتن، وكان يوسف بن تاشفين أحد القادة المخلصين في هذه الجماعة..

وفي سنة 448هـ توفي يحيى بن عمر اللمتوني، فقام بعده أخوه أبو بكر، وكان أشد قوة وأكثر حزماً من أخيه، فعلا شأن دولة الملثمين ببلاد المغرب، وأظهروا إعزاز الدين وكلمة الحق، واستولوا على بلاد كثيرة من سجلماسة والسوس وغير ذلك، وقتلوا خلقاً كثيراً من أهلها.

وفي سنة 461هـ (1068م) قامت حرب كبيرة بين الملثمين وبين برغواطة من أهل المغرب، وفي هذه الحرب قتل عبد الله بن ياسين، ورغم ذلك انتصر الملثمون بقيادة أبي

بكر بن عمر، واستقل أبو بكر بالأمر وحده، فعين ابن عمه يوسف بن تاشفين أميراً على الملثمين، وخرج هو لقتال عبدة الأصنام في جنوب المغرب والقضاء على فتنتهم.

وكان يوسف بن تاشفين يتمتع بصفات جعلته محبوباً، فهو شهم، حازم، شجاع، له قدرة عظمة على القيادة والزعامة، فالتفت الناس حوله، وهابوه، وأحبوه حباً شديداً.

سلطان المغرب

في سنة 463هـ عاد أبو بكر بن عمر اللمتوني من الجنوب، وقد انتصر على عبدة الأصنام وقضى على فتنتهم قضاء مبرماً، ولكنه وجد أن يوسف بن تاشفين يتمتع بمكانة عالية بين جنده ورعيته، ووجده بارعاً في إدارة العمليات السياسية والعسكرية، وضابطاً لمصالح مملكته، ماضي العزيمة، فتنازل له أبو بكر رسمياً عن السلطة، وخلع نفسه، وصار يوسف بن تاشفين سلطاناً على الملثمين وملكاً لدولة المرابطين في المغرب.

اتصف يوسف بن تاشفين بين رعيته بالبطولة والشجاعة، كما كان عادلاً مهيباً، كثرت جيوشه، وخافته الملوك، وكان حازماً، ذكياً، يذكر في خطبته دائماً أنه تابع لخلافة المسلمين العباسية في الشرق، ويذكر الخليفة العباسي ويدعو له على المنبر.

وقد قام يوسف بن تاشفين أثناء ولايته على دولة المرابطين بأعمال عظيمة، منها أنه قام ببناء مدينة مراكش سنة 465هـ، وجعل موقعها قرب البحر، كما بنى أيضاً مدينة تاجرة، وهي بلدة صغيرة من سواحل تلمسان بالمغرب.

وقد اتخذ يوسف بن تاشفين مدينة مراكش عاصمة لملكه، لتكون نقطة الانطلاق لتوحيد وتجميع قبائل المغرب الأقصى تحت سيطرته، وذلك بغرض بناء دولة قوية.

وقام يوسف بن تاشفين بإنشاء أسطول بحري كبير، ساعده على ضم المناطق المطلة على مضيق جبل طارق؛ مما سهل له ضم المغرب الأوسط، فصار بذلك المغرب كله في قبضته وتحت سيطرته.

وأقام يوسف بن تاشفين علاقات سياسية مع جيرانه من أمراء الغرب والشرق، كما أحاط نفسه بمجموعة من الأتباع ينظمون أمور الدولة، فأعطى دولته طابع المُلْك.

التوجه للأندلس

في الوقت الذي استطاع فيه يوسف بن تاشفين توحيد المغرب، ورفع راية الإسلام عالية فيه، وإعزاز الدين وقوة الحق، وكانت بلاد الأندلس على الناحية الأخرى من البحر المتوسط خلاف ذلك، فقد كانت تعاني من التفكك والانحلال والضعف، ويحكمها ملوك الطوائف الذين كانوا يواجهون خطر غزوات النصارى، ويعانون من سيطرة ملوكهم وتعسفهم في مطالبة الولاة المسلمين بما لا طاقة لهم به، ولم يظهر في الأندلس في تلك الفترة من يوحّد الصفوف تحت راية واحدة، واستولى كل جماعة على ولاية، وصار كل حزب بما لديهم فرحون، لا يهم الولاة سوى رغد العيش ومتعة الحياة.

وكان يوسف بن تاشفين ينظر إلى الأندلس بعين الحزن، ويأسف لما صار إليه المسلمون فيها، ويفكر في حال الإسلام في تلك البلاد، وما يفعله النصارى بهم، ويتجه إلى الله تعالى مستجيراً به، يلتمس منه النصر، ويدعوه أن يعيد للإسلام قوته في الأندلس، وكان إذا كلمه أحد في أمر الأندلس يقول: أنا أول منتدب لنصرة هذا الدين، ولا يتولى هذا الأمر إلا أنا.

وفي سنة 475هـ سنحت الفرصة ليوسف ين تاشفين أن يحقق ما يتمناه، حيث استنجد به أمراء الأندلس لينقذهم من النصارى الذين أعدوا الجيوش للقضاء على المسلمين في الأندلس، وكان الأمير المعتد بن عبّاد أمير إشبيلية أول من استنجد به، وكان يوسف بن تاشفين يعلم مدى أهمية مدينة إشبيلية بالنسبة للمسلمين، فهي من أعظم مدن الأندلس، تقع على مساحة كبيرة، ولها خمسة عشر باباً، وهي قريبة من البحر، فلما رأى يوسف بن تاشفين استنجاد المعتمد بن عباد به هب مسرعاً، فأعد جيشاً عظيماً، وجهز أسطوله الكبير، وسار حتى وصل إلى البحر، وقبل أن يعبر البحر رفع يديه نحو السماء، ودعا الله قائلاً: اللهم إن كنت تعلم أن في جوزنا (أي: اجتياز البحر) هذا خيراً للمسلمين فسهّل علينا جواز هذا البحر، وإن كان غير ذلك فصعِّبه حتى لا أجوزه.

ثم أمر يوسف بن تاشفين جنده بعبور البحر المتوسط إلى الأندلس على بركة الله.

موقعة الزلاقة

نزل يوسف بن تاشفين بجيشه وأسطوله أرض الأندلس، وانضم إليه جيوش المسلمين في الأندلس، وكان جيش النصارى قد تجمع في جموع هائلة تحت قيادة "الفونسو السادس" وعزموا على الاستيلاء على إشبيلية.

وتحرك الجيش الإسلامي تحت إمارة يوسف بن تاشفين، والتقى بجيش النصارى تحت إمارة "الفونسو السادس" في مكان يسمى "الزلاقة" قرب قرطبة، وكان ذلك في سنة 480هـ (1087م)، وقامت الحرب بين الفريقين، وكانت حرباً شرسة قوية، بذل فيها المسلمون أرواحهم فداء لدين الله وإعلاء لراية الحق، وظلت الحرب أياماً حتى تحقق النصر للمسلمين، فانهزم النصارى، وانتصر يوسف بن تاشفين انتصاراً ساحقاً، وانكسرت شوكة النصارى انكساراً كبيراً، وفرح المؤمنون بنصر الله، وبعدها وحّد الملك يوسف بن تاشفين المغرب والأندلس تحت قيادته الخاصة.

أمير المسلمين

بعد وقعة "الزلاقة" قام يوسف بن تاشفين بأعمال عظيمة في الأندلس، فاجتمع ملوك الأندلس، وكانوا ثلاثة عشر، واتفقوا على أن يبايعوا يوسف بن تاشفين أميراً لهم، فلما رأى شيوخ دولة المرابطين بالمغرب ذلك اجتمعوا عنده، وقالوا له: أنت خليفة الله في المغرب والأندلس، وحقك أكبر من أن تدعى بالأمير، بل ندعوك بأمير المؤمنين. فقال يوسف: حاشا لله أن أتسمّى بهذا الاسلام، إنما يتسمى به الخلفاء، وأنا رجل الخليفة العباسي، والقائم بدعوته في المغرب. فقالوا له: لا بد من اسم تمتاز به، فقال: إذا كان لا بد فليكن أمير المسلمين. فوافقوا.

قام أمير المسلمين يوسف بن تاشفين بعد ذلك بضرب السكة (العملة)، فصنع ديناراً جعل نقشه: لا إله إلا الله محمد رسول الله، وذلك في أعلاه، وكتب في أسفله: أمير المسلمين يوسف بن تاشفين، وكتب في الوسط (في الدائرة): {وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ} وعلى الوجه الآخر للدينار كتب: الأمير عبد الله أمير المؤمنين العباسي. وفي الدائرة كتب تاريخ ضرب الدينار وموضع سكه.

إعادة الأندلس

أصر يوسف بن تاشفين على تحرير بلاد الأندلس، وإعادة الولايات فيها إلى الإسلام مرة أخرى كما كانت عليه من قبل، فبعد أن هزم الفونسو السادس في موقعة الزلاقة، واستطاع أن يوقف زحف جيوش النصارى، شرع في تحرير ولايات الأندلس، فبدأ بغرناطة، وهي من أعظم مدن الأندلس وأكبرها، فسير إليها جيوس الإسلام، وكان على غرناطة آخر ملوك الصنهاجين عبد الله بن بلكين، فامتلك يوسف غرناطة، ودخلها، ثم أخذ ابن بلكين وعاد به إلى مراكش بالمغرب.

وظل يوسف على اتصال بالأندلس، وسيّر جيوشه تحت قيادة القائد "شير بن أبي بكر"، وبدأ القائدة "شير" يفتح الإمارات الأندلسية ويستولي عليها، فاستولى على مدينة طرطوشة شرق قرطبة، وهي مدينة قريبة من البحر، كما استولى على مدينة بلنسية، وهي برية بحرية شرق قرطبة، ثم استولى على مدينة شاطبة ثم مدينة دانية ثم مدينة مرسية ثم مدينة بطليوس وغير ذلك حتى تم له ملك الجزيرة كلها.

محب العلم والعلماء

وكان يوسف بن تاشفين حليماً، تقياً، خيِّراً، يحب أهل الدين، ويحكمهم في بلاده، ويبالغ في إكرامهم، وكان إذا وعظه أحد خشع عند استماع الموعظة، ولان قلبه لها، وظهر ذلك عليه.

ومن المواقف التي ظهر فيها كرمه وعفوه ما يحكى من أن ثلاثة من الرجال اجتمعوا يوماً، فقالوا فيما بينهم: هيا نتمنى. فتمنى أحدهم أن يكون له ألف دينار يتاجر بها، وتمنى الثاني أن يعمل لأمير المسلمين، وتمنى الثالث أن يتزوج النفزاوية، وهي زوجة أمير المسلمين؛ وكانت من أحسن النساء، ولها كلمة مسموعة في الدولة..

وبلغ ذلك الأمر أمير المسلمين يوسف بن تاشفين، فأرسل إلى الثلاثة، فجاءوا، فأعطى الأول ألف دينار. وأعطى الثاني عملاً عنده يعمل فيه، ثم قال للثالث: يا جاهل، ما حملك على هذا الذي لا تصل إليه؟ ثم أرسله إلى النفزاوية لترى فيه رأيها.

فلما علمت النفزاوية زوجة أمير المسلمين بذلك أمرت ببناء خيمة، فجعلت فيها ذلك الرجل ثلاثة ايام، ترسل إليه كل يوم طعاماً واحداً، ثم أمرت بإحضاره، فلما وقف أمامها قالت له: ما أكلت في هذه الأيام؟ فقال: طعاماً واحداً. فقالت: كل النساء شيء واحد. ثم أعطته مالاً وثياباً وأطلقت سراحه.

الرحيل

شمل ملك أمير المسلمين يوسف بن تاشفين المغربين الأقصى والأوسط وجزيرة الأندلس، وذاع أمره في بلاد الشرق، وسمع علماء المسلمين في الشرق عن حب يوسف بن تاشفين لأهل العلم والدين، وكان الإمام أبو حامد الغزالي في مصر، فلما علم بما عليه يوسف بن تاشفين من الأوصاف الحميدة، وميله إلى أهل العلم عزم على التوجه إليه..

فوصل إلى الاسكندرية، وشرع في تجهيز ما يحتاج إليه.. ولكنه قبل أن يخرج وصله خبر وفاة أمير المسلمين يوسف بن تاشفين، فلم يخرج أبو حامد الغزالي ورجع عن عزمه.

وكانت وفاة أمير المسلمين يوسف بن تاشفين سنة 498هـ (1104م) بسبب مرض أصابه، ودفن رحمه الله في مدينة مراكش بالمغرب، وكان عمره يوم وفاته 88 سنة، وكانت مدة ولايته 35 سنة، وقد قام بالأمر بعده ابنه علي بن يوسف.

قال المستشرق يوسف أشياخ: يوسف بن تاشفين أحد أولئك الرجال الأفذاذ الذين يلوح أن القدر قد اصطفاهم لتغير وجهة سير الحوادث في التاريخ، فقد بث بما استحدث من نظم وأساليب روحاً قوية في القبائل والشعوب التي يحكمها، وقد فاضت هذه الروح إلى تحقيق العجائب.

رحم الله أمير المسلمين يوسف بن تاشفين، وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

أشبال التوحيد

الحمد لله رب العالمين..والصلاة والسلام على إمام المربين .. المبعوث رحمة للعالمين .. سيدنا محمد .. وعلى اله وصحبه أجمعين .. أما بعد ..

فلم يعد يخفى على كل ذي بصيرة ما تبذله أنظمة الكفر العالمي وأذنابهم من جهود ضخمة في سبيل إفساد أجيال المسلمين المتعاقبة .. وما ذلك إلا لخوفهم من أن تتصل هذه الأجيال الناشئة بأسلافهم ممن ملكوا هذه الدنيا بأيديهم بعد أن أخرجوها من قلوبهم .. فطوعوا أنفسهم لنصرة دينهم .. فذلت لهم رقاب الجبابرة..

وإيمانا منا نحن إخوانكم في منبر التوحيد والجهاد أن تنشئة هذه الأجيال على عقيدة الإسلام وأخلاقه؛ على هذا النبع الصافي – توحيد وجهاد – إيمانا منا أن ذلك لا بد أن يكون من أولويات الدعاة المربين .. وان ذلك هو أشد على الكفار من رميهم بالنبل .. فقد شرعنا بنشر هذه الرسائل

الموجهة لأشبال التوحيد .. والتي نسأل الله أن تكون عونا لكافة إخواننا واخواتنا في تنشئة ذلك الجيل الفريد..

فإلى أشبال التوحيد .. نهدي هذه الكلمات..

والله من وراء القصد

منبر التوحيد والجهاد
www.tawhed.ws
www.alsunnah.info
www.almaqdese.net

سلسلة القادة والفاتحون

قاهر التتار

سيف الدين قطز

إعداد

منصور علي عرابي



بسم الله الرحمن الرحيم

الملك المظفر سيف الدين قطز بن عبد الله المعزّي، ثالث ملوك المماليك بمصر والشام، وقاهر التتار في موقعة عين جالوت.

اسمه محمود بن ممدود، وهو ابن أخت جلال الدين بن خوارزم شاه، ولد حراً، ولكنه سرق وبيع في سوق العبيد، ثم صار من مماليك عز الدين أيبك، فلما قتل عز الدين أيبك تولى ابنه المنصور السلطة، وصار قطز نائب السلطنة.

وأثناء ذلك كان التتار قد وصلوا بغداد، واستولوا عليها، وخربوها، ثم وصلوا دمشق، وهددوا مصر، فطلب علماء الإسلام من قطز أن يتولى العرش، لصغر سن المنصور، وعدم قدرته على تحمل الأعباء، فتولى قطز السلطة، وجمع المسلمين، واستطاع أن يهزم التتار ويوقف زحفهم.

وفي هذا الكتاب تتعرف على سيرة قاهر التتار الملك المظفر، سيف الدين قطز.

المولد والنشأة

في شرق آسيا، في بلاد ما وراء النهر، كان السلطان جلال الدين بن خوارزم شاه يعيش في مملكته عيشة سعيدة هنيئة، وكان الأمير ممدود ابن عمه، وزوج أخته، وقائد جيوشه، ووزيره، قد رزقه الله بولد أشقر الوجه، تام الشكل، فسماه "محموداً"، ونشأ الطفل محمود بن ممدود في قصر الملك حتى بلغ عشر سنوات.

وابتلى الله عز وجل المسلمين بالتتار (المغول)، وكانوا كثير العدد، أقوياء، عرفوا بالشراسة وسفك الدماء، لا دين لهم، جمعهم جنكيز خان من الصحراء، ووضع لهم كتاباً سماه "الياساق" أو "السياسة الكبرى"، وكان عبارة عن مجموعة قوانين من ذهنه، وأحكام وضعية، أكثرها مخالف للشريعة المحمدية، كتبها جنكيز خان وجعلها في خزائنه يتوارثها عنه أولاده وأحفاده.

وبدأ التتار في اجتياح الدول الإسلامية، فتصدى لهم جلال الدين بن خوارزم شاه، ومعه ابن عمه القائد ممدود، ولكن التتار هزموا جلال الدين، وقتلوا الأمير ممدوداً، ففرت نساء الأسرة بالأطفال، ولكنهم هلكوا إلا الطفل الصغير محموداً، فقد نجاه الله عز وجل،

فأخذه بعض اللصوص وباعوه في أسواق العبيد في دمشق، وغيّر محمود اسمه، فسمى نفسه قطز؛ حتى لا يتعرف عليه أحد.

ظل قطز في دمشق مدة من الزمن، ينتقل من سيد إلى سيد، وكان في دمشق رجل اسمه جمال الدين التركماني، يأخذ العبيد من دمشق ويبيعهم للأمراء في مصر، فرأى قطز في أحد أسواق العبيد، فأخذه، فوجده شاباً مهلهل الثياب، غير نظيف، فراح يذمه ويهينه، فقال له قطز: ويلك، ماذا تريد أن أعطيك إذا ملكت الديار المصرية؟ فقال: أنت مجنون؟! فقال قطز: لقد رأيت رسول الله ﷺ في المنام، وقال لي: أنت تملك الديار المصرية وتكسر التتار. وقول رسول الله ﷺ حق لا شك فيه. فقال له جمال الدين: إذا ملكت ذلك أريد منك إمرة خمسين فارساً. فقال قطز: نعم أبشر.

نائب السلطان

وصل قطز إلى مصر مع جمال الدين التركماني، فباعه في سوق المماليك، فاشتراه مسئول الخدم عند الأمير عز الدين أيبك، وكان الأمير عز الدين بمثابة وزير السلطان الصالح نجم الدين أيوب، فلما رأى عز الدين قطز أعجبه، فقربه منه، فوجده أنبل مماليكه، ووجد فيه القوة والشجاعة، والتدين والتقى، وحب الإسلام والمسلمين. فجعله ساعده الأيمن وأمين أسراره، ورئيس عسكره.

وكان الملك الصالح نجم الدين أيوب متزوجاً بشجرة الدر، وله ابن من امرأة أخرى اسمه توران شاه، فلما توفي الملك الصالح أراد توران شاه الاستقلال بالملك، ولكن شجرة الدر مع بعض المماليك دبروا للقضاء عليه، وقتلوه، وقامت مكانه الملكة شجرة الدر، وظلت تحكم مصر ثلاثة أشهر، ولكن الخليفة العباسي وعلماء المسلمين اعترضوا على هذا الأمر، فتزوجت شجرة الدر عز الدين أيبك، وجعلته ملكاً على مصر بالاشتراك مع الملك الأشرف موسى بن الناصر، ولكن سرعان ما تخلص عز الدين أيبك من الملك الأشرف واستقل هو بالأمر بلا منازعة، ولقب نفسه بالملك المعظم، وجعل قطز نائباً له، فأصبح قطز نائب السلطان.

وفي الثالث والعشرين من ربيع الأول سنة 655هـــ قتل الملك المعظم عز الدين أيبك، وكانت شجرة الدر هي التي قتلته؛ لأنه كان عزم على أن يتزوج ابنة صاحب الموصل بدر الدين لؤلؤ، فأمرت جواريها أن يمسكنه لها، فما زالت تضربه بقباقيبها حتى مات، فلما علم سيق الدين قطز بذلك، قام ومعه مماليك المعز، فقتلوا شجرة الدار وألقوها على

مزبلة، ثم أقاموا مكانها نور الدين علي بن عز الدين أيبك، ولقبوه بالملك المنصور؛ وكان صغير السن، وضربت السكة (العملة) باسمه، وخُطب له على المنابر، وكان نائبه على السلطنة ووزيره سيف الدين قطز.

سقوط بغداد

في ذي الحجة سنة 655هـ وصلت جيوش المغول إلى العالم العربي بقيادة ملكهم هولاكو بن تولي بن جنكيز خان، فأرسل مقدمة يستطلع بها أحوال العرب، فعلم ضعفهم، فطمع في أخذ بلادهم.

ومع بداية سنة 656هـ نزلت جيوش التتار بغداد، فقتلوا مئات الألوف، ثم نهبوا الخزائن، وقتلوا الخليفة العباسي، وقضوا على الخلافة العباسية، وخربوا المساجد والبيوت، ولم ينج منهم سوى اليهود والنصارى ومن التجأ إليهم وصار من أتباعهم.

وبعدما كانت بغداد أبهى المدن وأعظمها صارت خراباً، ليس فيها إلا القليل من الناس، وهم في خوف وذلة وقلة، والقتلى في الطرقات كأنها التلول، وكثرت الأمراض والأوبئة.

وظل هولاكو ببغداد خمسة أشهر ثم رحل إلى مقر ملكه في شرق آسيا في جمادى الأولى سنة 656هـ، وترك قيادة الجيش لنائبه وقائد جيوشه كتبغا نوين زيك، ومعه أربعة من القادة التتار وأوصاهم بمواصلة الزحف على بلاد العرب والإسلام حتى لا يبقى دار للعرب ولا للمسلمين إلا أخوذها واستولوا على خيراتها وقتلوا أهلها، فعملوا على تنفيذ تلك الوصية وتحقيقها.

الملك المظفر

وصلت أنباء سقوط بغداد مصر، وعزم التتار على مواصلة الزحف، فأصاب الناس الهلع والفزع، وسارت بينهم الرهبة، وكثرت الشائعات عن التتار؛ الذين يأكلون لحوم البشر، ولا يقف أمامهم جيش ولا شيء.

وكان على مصر آنذاك الملك المنصور علي بن عز الدين أيبك، وكان صغيراً، لم يتجاوز عمره خمس عشرة سنة، ولم يكن قادراً على تحمل أعباء الملك في هذه الظروف العصيبة، فطلب علماء الإسلام من سيف الدين قطز أن يتولى العرش مكانه، لإنقاذ مصر والبلاد الإسلامية من خطر التتار، فاقتنع قطز برأيهم، فقام بعزل الملك المنصور، وسيّره مع

أمه وإخوته إلى بلاد الأشكري، إحدى قرى مصر بالشرقية، وتسلطن قطز على ملك مصر، وسمى نفسه بالملك المظفر سيف الدين قطز، وكان ذلك في ذي القعدة سنة 657هـ، فلما اعترض بعض المماليك جمعهم قطز، وبين لهم انه أخذ برأي العلماء والفقهاء، ثم قال لهم: لا بد للناس من سلطان قاهر، يقاتل عن المسلمين عدوهم، والملك المنصور صبي صغير، لا يعرف تدبير المملكة. فاقتنع المماليك بذلك، وبارك العلماء هذا الأمر، وبدأ قطز يفكر كيف يتصدى للتتار ويستعد لهم، فعين الأمير ركن الدين بيبرس أتابك العساكر (رئيساً للجند)، وجعله بمثابة وزيره المفوض في أمور المملكة، وكان الملك المظفر فارساً، شجاعاً، تقياً، بارعاً في الأمور السياسية والعسكرية، فأحبته الرعية حباً شديداً، ولما علم جمال الدين التركماني بأمر قطز جاءه من دمشق، فأعطاه قطز إمرة خمسين فارساً كما وعده من قبل.

الزحف التتري

مع بداية سنة 658هـ بدأ التتار في الزحف من بغداد متجهين إلى الشام، فعبروا نهر الفرات، ووصلوا إلى حلب في صفر سنة 658هـ، فحاصروها سبعة أيام، ثم استأمنوا أهلها، وعاهدوهم على الصلح دون قتال، فانخدع أهل حلب بذلك، وفتحوا المدينة، فلما دخلها التتار غدروا بهم، وقتل التتار أهل حلب، ونهبوا الأموال، وسبوا النساء والأطفال، ثم اتجهوا إلى دمشق في آخر صفر، فأخذوها سريعاً من غير ممانعة ولا مدافع، فلما دخلوها خربوا كل شيء فيها، وقتلوا أميرها بدر الدين بن قراحا، ونقيبها جمال الدين بن الصيرفي، وسلموا البلد إلى أمير منهم يقال له "أبل سيان"، وكان – لعنه الله – معظماً لدين النصارى، فأفسد في المدينة، وخرب المساجد، وقتل المسلمين وأذلهم..

واستولى التتار على بلاد الشام، فاستولوا على حرّان والرها وديار بكر ثم نابلس ثم الكرك ثم بيت المقدس، وتقدموا إلى غزة فأخذوها دون أن يقاومهم أحد، و لم يبق أمامهم غير اليمن والحجاز ومصر، فراحوا يستعدون للهجوم على الديار المصرية.

لا خوف ولا استسلام

كان قائد جيوش التتار الذي استولى علي بلاد الشام اسمه كتبغا نوين زيك، ومعنى نوين: أمير عشرة آلاف، وكان شيخاً كبيراً، وكان يميل إلى دين النصارى، ولكن لا يستطيع الخروج عن القوانين التي وضعها جنكيز خان، ولما عزم كتبغا على التوجه إلى مصر أرسل رسالة مع بعض الرسل إلى سلطان مصر الملك المظفر قطز، وكانت رسالة مليئة بالتخويف والتهديد، ومما جاء بها قوله: (..فلكم بجميع البلاد معتبر، وعن عزمنا

مزدجر، فاتعظوا بغيركم، وأسلموا إلينا أمركم، قبل أن ينكشف الغطاء فتندموا، ويعود عليكم الخطأ، فنحن ما نرحم من بكى، ولا نرق لمن شكا، وقد سمعتم أننا قد فتحنا البلاد، وطهرنا الأرض من الفساد، وقتلنا معظم العباد، فعليكم بالهرب، وعلينا الطلب، فأي أرض تأويكم، وأي طريق ينجيكم، وأي بلاد تحميكم؟!).

فلما وصلت الرسالة إلى قطز جمع الأمراء، واتفق معهم على قتل رسل التتار، فوافقوا، فتم القبض على رسل التتار، وأمر قطز بإعدامهم، ثم علق رءوسهم على باب زويلة.

وكان هذا التصرف من قطز يعني عدم الخوف أو الاستسلام، وكان بمثابة إعلان الحرب على التتار.

دعوة للجهاد

جمع الملك المظفر قطز القضاة والفقهاء والأعيان ورجال الدولة لمشاورتهم وأخذ رأيهم في الجهاد.

وفي دار السلطنة بقلعة الجبل حضر العالم الكبير الشيخ عز الدين بن عبد السلام، والقاضي بدر الدين السخاوي قاضي الديار المصرية، واتفق الجميع على التصدي للتتار والموت في سبيل الله. وراح العلماء على المنابر يدعون إلى الجهاد في سبيل الله دفاعاً عن الإسلام والوطن ضد المغول الكفرة المشركين..

وفي يوم الاثنين 15 شعبان سنة 658هـ خرج الملك المظر قطز بجميع عسكر مصر، ومن انضم إليهم من عساكر الشام والعرب والتركمان وغيرهم من قلعة الجبل، فنادى في القاهرة وكل أقاليم مصر، يدعو الناس إلى الجهاد في سبيل الله والتصدي لأعداء الإسلام، وجمع الأمراء، وطلب منهم أن يساعدوه في قتال التتار، ولكن بعضهم امتنع عن الرحيل معه، فقال لهم قطز: (يا أمراء المسلمين، لكم زمان تأكلون أموال بيت المال، وأنتم للغزاة كارهون، وأنا متوجِّه، فمن اختار الجهاد يصحبني، ومن لم يختر ذلك يرجع إلى بيته، فإن الله مطلع عليه، وخطيئة حريم المسلمين في رقاب المتأخرين). ثم جمع قطز القادة، وشرح لهم خطورة الموقف، وذكّرهم بما وقع من التتار من الخراب والتدمير وسفك الدماء، وطلب منهم وهو يجهش بالبكاء أن يبذلوا أرواحهم وأنفسهم في سبيل إنقاذ الإسلام والمسلمين.

فلم يتمالك القادة أنفسهم، وأخذوا يبكون لبكائه، ووعدوه أن يضحوا بكل شيء لنصرة الإسلام.

عين جالوت

لم يقف الملك المظفر موقف المدافع، بل خرج لملاقاة التتار خارج مصر، وذلك لإيمانه بأن الهجوم خير وسيلة للدفاع، وحتى يرفع معنويات رجاله، ويثبت لأعدائه أنه لا يخافهم ولا يخشى منهم.

وتحرك قطز بالجيش الإسلامي من مصر مع بداية شهر رمضان سنة 658هـ، وسار حتى وصل مدينة غزة، وكانت فيها بعض جموع التتار بقيادة "بيدرا"؛ الذي فوجىء بهجوم إحدى كتائب المماليك بقيادة بيبرس، فانهزم التتار، وتحققت بشائر النصر، واستعاد قطز غزة من التتار، وأقام بها يوماً واحداً، ثم اتجه شمالاً نحو سهل البقاع بلبنان، وأرسل قطز حملة استطلاعية استكشافية تحت قيادة الأمير "ركن الدين بيبرس"، ليجمع أكبر قدر ممكن من المعلومات عن التتار، وعن قوتهم وعددهم وسلاحهم..

كان التتار قد عسكروا في مكان اسمه "عين جالوت" بفلسطين، فلما وصل ركن الدين بيبرس إلى ذلك المكان لم ينتظر حتى يصل إليه قطز، بل اشتبك مع التتار، وظل القتال مستمراً بين الفريقين..

وفي يوم الجمعة 25 رمضان سنة 658هـ وصل الملك المظفر قطز بالجيش إلى ساحة القتال، وانضم بيبرس بمن معه إلى جيش المسلمين، وأرادوا أن يبدأ القتال، ولكن قطز أمرهم أن ينتظروا حتى وقت صلاة الجمعة، حيث يدعو العلماء لهم بالنصر.

ولما حان وقت القتال، ورفع العلماء والمسلمون أيديهم إلى الله يتضرعون له، ويدعونه أن ينصر المسلمين، أعطى قطز الإشارة بالاقتحام، ودارت معركة حاسمة بين الطرفين، واقتحم قطز الصفوف، وتقدم جنوده وهو يصيح: واإسلاماه.. واإسلاماه.. ويضرب بسيفه الأعداء، ويشجع أصحابه، ويطالبهم بالشهادة في سبيل الله.. واشتدت المعركة.. ورأى قطز انكشافاً في المسلمين، فخلع الخوذة عن رأسه، ودخل وسط التتار يقاتل بشجاعة، والموت يحيط به من كل جانب.. وهو يصرخ أمام جيشه: (واإسلاماه واإسلاماه..يا الله، انصر عبدك قطز على التتار).

وفي أثناء المعركة قتل فرس قطز، فوقف يقاتل على رجليه ثابتاً، وقد أحاط به عسكر التتار، فرآه أحد الأمراء، فنزل عن فرسه للسلطان قطز، ولكن قطز امتنع عن ذلك، وحلف عليه أن يركبه، وقال له: ما كنت لأحرم المسلمين نفعك. وأصر أن يقاتل حتى جاءه رجل بفرس من الخيل، فركبه، واستمر يقاتل في شجاعة وإقدام حتى ارتبكت صفوف التتار.

وقد لجأ القائد العظيم قطز إلى حيلة ذكية، فقد أخفى بعض قواته من المماليك بين التلال، حتى إذا زادت شدة المعركة ظهر المماليك من كمائنهم، وهاجموا التتار بقوة وعنف.

وكانت هناك مزرعة بالقرب من ساحة القتال، فاختفى فيها مجموعة من جنود التتار، فأمر قطز جنوده أن يشعلوا النار في تلك المزرعة، فاحترق من فيها وانهزم التتار هزيمة منكرة، وانكسرت شوكتهم، وقتل أميرهم كتبغا نوين في المعركة، قتله الأمير آقوش الشمسي، وفر التتار إلى بيسان، فأمر قطز بمطاردتهم حيث ظفر بهم وقتلهم، ودخل السلطان قطز دمشق في موكب عظيم.

وفاة قطز

بعد موقعة عين جالوت، جلس الملك المظفر قطز في قصر القلعة بدمشق، وجاء الملوك والأمراء يقدمون له التهاني على ما حققه من نصر عظيم، وقال له بعض الأمراء في ذلك المجلس: أيها الملك، لم لم تركب فرس الأمير فلان أثناء المعركة حينما قتل فرسك؟ فلو أن بعض الأعداء وصل إليك لقتلك وهلك الإسلام بسببك؟ فقال قطز: أما أنا فكنت أروح إلى الجنة، وأما الإسلام فله رب لا يضيعه، وقد قتل فلان وفلان (حتى عد خلقاً من الملوك)، فأقام للإسلام من يحفظه غيرهم، ولن يضيع الإسلام.

وأقام قطز بدمشق مدة قصيرة، نشر فيها العدل بين الرعية، ورتب أمور البلاد، وعزل من بقي من أولاد بني أيوب، واستبدل بهم من اختاره من رجاله الأقوياء، وأرسل الأمير بيبرس خلف التتار ليخرجهم عن حلب، ووعده أن يجعله أميراً عليها، فقام بيبرس بذلك، حتى طهرت بلاد الشام من التتار.

ورأى الملك المظفر قطز أن المصلحة تقتضي أن يرجع إلى مصر، وأن يكون بيبرس معه، فجعل على حلب الملك السعيد بن بدر الدين لؤلؤ، فغضب بيبرس، وأضمر في نفسه شراً للملك المظفر.

وفي يوم السبت 16 ذي القعدة سنة 658هـ (1260م) خرج الملك المظفر قطز من دمشق عائداً إلى مصر، ومعه ركن الدين بيبرس وبعض الأمراء، فلما وصلوا مكاناً يسمى القصير بالأردن، أنقضّ بعض الأمراء على الملك المظفر قطز، وقتلوه حسداً منهم وحقداً على ما أكرمه الله به من نصر، ودفنوه في المكان الذي قتل فيه، ثم نقل قبره إلى القاهرة بعد ذلك، وقد حزن الناس عليه حزناً شديداً.

أشبال التوحيد

الحمد لله رب العالمين..والصلاة والسلام على إمام المربين .. المبعوث رحمة للعالمين .. سيدنا محمد .. وعلى اله وصحبه أجمعين .. أما بعد ..

فلم يعد يخفى على كل ذي بصيرة ما تبذله أنظمة الكفر العالمي وأذنابهم من جهود ضخمة في سبيل إفساد أجيال المسلمين المتعاقبة .. وما ذلك إلا لخوفهم من أن تتصل هذه الأجيال الناشئة بأسلافهم ممن ملكوا هذه الدنيا بأيديهم بعد أن أخرجوها من قلوبهم .. فطوعوا أنفسهم لنصرة دينهم .. فذلت لهم رقاب الجبابرة..

وإيمانا منا نحن إخوانكم في منبر التوحيد والجهاد أن تنشئة هذه الأجيال على عقيدة الإسلام وأخلاقه؛ على هذا النبع الصافي – توحيد وجهاد – إيمانا منا أن ذلك لا بد أن يكون من أولويات الدعاة المربين .. وان ذلك هو أشد على الكفار من رميهم بالنبل .. فقد شرعنا بنشر هذه الرسائل

الموجهة لأشبال التوحيد .. والتي نسأل الله أن تكون عونا لكافة إخواننا واخواتنا في تنشئة ذلك الجيل الفريد..

فإلى أشبال التوحيد .. نهدي هذه الكلمات..

والله من وراء القصد

منبر التوحيد والجهاد
www.tawhed.ws
www.alsunnah.info
www.almaqdese.net

سلسلة القادة والفاتحون

ناصر الخلافة

الظاهر بيبرس

إعداد

منصور علي عرابي



بسم الله الرحمن الرحيم

الملك الظاهر، ركن الدين بيبرس، صاحب الفتوحات، وناصر الخلافة الإسلامية، وهازم جيوش التتار والصليبيين.

ولد بأرض القبجاق (بلاد ما وراء النهر) ثم أسر، وبيع في سوق العبيد، ثم انتقل إلى مصر في خدمة الملك الصالح أيوب، وجعله الأمير أقطاي من خاصته، ثم صار رئيس العسكر في أيام الملك المظفر قطز، وكان له دور كبير في نصر المسلمين في عين جالوت، إلا أن بعض المماليك حرضوه على قتل الملك، فاشترك معهم في ذلك، ثم صار سلطاناً لمصر والشام.

وكان بيبرس فارساً شجاعاً، له وقائع هائلة مع التتار والصليبيين، وله فتوحات عظيمة، فهو الذي فتح بلاد النوبة و دنقلة في جنوب مصر؛ ولم يفتحها أحد قبله، وفي أيامه انتقلت الخلافة الإسلامية إلى الديار المصرية.

وفي الصفحات التالية نتعرف على سيرة الملك الظاهر، ركن الدين بيبرس، وما قام به من أعمال وآثار.

مولد بيبرس ونشأته

في بلاد ما وراء النهر كان بركة خان رجلاً بسيطاً، متزوجاً امرأة من قومه، وكان مسلماً تقياً ورعاً..

وفي سنة 625هـ (1228م) رزق الله عز وجل بركة خان بمولود سماه "بيبرس" وعلمه الأخلاق الحميدة، كما علمه الفروسية، ودربه على فنون القتال منذ الصغر.

وحين ولد بيبرس كانت الحروب في العالم الإسلامي على أشدها؛ فالتتار قادمون من بلاد ما وراء النهر وشرق آسيا، والفرنج الصليبيون يجتاحون العالم الإسلامي من أوربا، وفي هذه السنة استولوا على عكا وصور ومدينة صيدا وقويت شوكتهم.. وأصبح العالم الإسلامي بين فكي الأسد المفترس.. فنشأ بيبرس يتمنى أن يمكنه الله من نصرة الإسلام وعزته، وأن يعيد للمسلمين مجدهم وعزهم.. ولكن سرعان ما نالته أيدي الغدر، فقتل أهله، وأخذ فبيع في سوق العبيد.. وراح ينتقل من سيد إلى سيد، ومن بلد إلى بلد حتى وصل القاهرة في مصر، فاشتراه الأمير علاء الدين أيدكين البندقدار، فنسب إليه بيبرس،

فكان يقال له بيبرس العلائيُّ البندقداري، فلما قبض الملك الصالح نجم الدين أيوب على علاء الدين أيدكين، أخذ أمواله وعبيده، وكان منهم بيبرس، فوجد فيه الصالح نجم الدين أيوب القوة والذكاء، فجعله من خاصته مع المماليك الذين حرص على جمعهم حوله.

الأمير بيبرس

ظل بيبرس مع المماليك الذين جلبهم الصالح نجم الدين ونسبوا إليه، فأطلق عليهم اسم "المماليك الصالحية"، وكان أقرب هؤلاء المماليك إلى الملك الصالح اثنين، هما: عز الدين أيبك، وفارس الدين أقطاي.. وكان بيبرس بمثابة وزير أقطاي وساعده الأيمن، وكان يتفق معه في صفات كبيرة كالشجاعة الزائدة، والجرأة والتهور أحياناً.. ولكنه يختلف معه في الأخلاق.. إذ كان بيبرس أكثر من أقطاي ورعاً وتقوى.

وزاد عدد المماليك في مصر، وأعطى لهم الصالح نجم الدين الحرية حتى ضج منهم الناس، فاضطر أن يبعدهم عن السكان، فبنى لهم قلعة خاصة بجزيرة الروضة عام 638هـ، واتخذ من هذه القلعة مقراً لحكمه.. وسمي المماليك باسم المماليك البحرية؛ نسبة إلى جزيرة الروضة.

وفي عام 647هـ توفي الملك الصالح نجم الدين أيوب أثناء قتال الصليبيين في معركة المنصورة الشهيرة، فكتمت زوجته شجرة الدر نبأ وفاته، وأدارت هي شئون القتال بمساعدة المماليك، ووصل توران شاه بن الصالح أيوب إلى مصر، واستطاع المصريون هزيمة الصليبيين، وأسر لويس التاسع قائد الحملة، وحبس في القلعة حتى دفع جزية كبيرة فداء له، وانسحبت الحملة إلى عكا.

بعد معركة المنصورة اختلف توران شاه مع شجرة الدر، وأراد القضاء على سلطة المماليك، فقتله فارس الدين أقطاي عام 648هـ، ثم تزوجت شجرة الدر الأمير عز الدين أيبك، وتنازلت له عن عرش مصر، ولقب نفسه بالملك المعز، إلا أن الأيوبيين في الشام غضبوا، فشنوا حملات على الملك المعز أيبك، ولكنه استطاع أن ينتصر عليهم بمساعدة المماليك وعلى رأسهم فارس الدين أقطاي، ومساعده ركن الدين بيبرس، ومعهم سيف الدين قطز؛ الذي كان بمثابة وزير الملك المعز وساعده الأيمن.

وبد أن هدأت الأحوال واستقرت للملك المعز أيبك، أصبح فارس الدين أقطاي أكبر الأمراء.. فكان أيبك يخشى على نفسه من أقطاي، فأعطاه حكم الصعيد، ولكن أقطاي لم يقنع بذلك، وقدم من الصعيد إلى القاهرة ذات يوم، فنهب أموال الناس وأسر بعضهم

ومع جماعة من المماليك البحرية، فبغوا وطغوا وتجبروا.. دون أن يلتفتوا إلى الملك المعز، فشاور المعز زوجته في قتل أقطاي، فأشارت عليه بذلك.. فاستدعى أيبك أقطاي لاستشارته في بعض الموضوعات، فسار إليه مع مجموعة من مماليكه على رأسهم بيبرس، فلما وصلوا إلى القلعة دخل أقطاي وأغلق الباب دون من منعه، ثم انهال مماليك المعز ضرباً على أقطاي حتى قتلوه، فلما علم بيبرس ومن معه ذلك هربوا من مصر إلى بلاد الشام؛ خوفاً من الملك المعز أن يقتلهم كما قتل سيدهم أقطاي.

قائد العسكر

ظل الأمير بيبرس مع من فر من المماليك في الشام مدة من الزمن، حيث اتجهوا إلى الملك المغيث عمر الأيوبي، وراحوا يحرضونه على قتال الملك المعز في مصر.. فخرج الملك المغيث لقتال المصريين سنة 656هـ ومعه بيبرس وبعض المماليك، فهزمهم المصريون، وأخذوا ما معهم من أموال وغنائم، وأسروا منهم جماعة.. فعاد بيبرس مهزوماً إلى الشام هو ومن معه في أسوأ حال، وحدثت بينهم وبين أهل الشام جفوة كبيرة.

وكان الحال في مصر أسوأ، إذ اختلف المعز مع زوجته شجرة الدر، وكان يريد أن يتزوج عليها، فقتلته بمساعدة بعض المماليك، فلما علم قطز بذلك قام ومعه المماليك المعزية بقتل شجرة الدر، وأقام على العرش المنصور علي بن عز الدين أيبك، وكان صغير السن.

في أثناء ذلك وصلت جيوش التتار إلى بغداد، وقتلوا الخليفة العباسي المستعصم بالله، وسقطت الخلافة العباسية.. وراح التتار يهددون بلاد الشام ومصر.. فأشار العلماء على سيف الدين قطز أن يتولى حكم مصر ويتصدى للتتار.. وبالفعل عزل قطز المنصور وتولى السلطة، ولقب نفسه بـ "الملك المظفر"، ثم أعلن أنه عفا عن المماليك البحرية الذين فروا إلى الشام.. فلما علم ركن الدين بيبرس بذلك عاد مع المماليك إلى مصر.. للوقوف بجانب السلطان في حرب التتار.. فاستقبلهم قطز أحسن استقبال.. وأنزل ركن الدين بيبرس بدار الوزارة، وجعله قائداً على الجيوش (أتابك العسكر)، فصارت له مكانة كبيرة، وكان بمثابة وزير ونائب السلطان قطز.

تحرك التتار بعد ذلك إلى دمشق، فاستولوا عليها.. فجهز قطز الجيش، ووقعت معركة عين جالوت الشهيرة.. وكان لبيبرس دور كبير في هذه المعركة، التي انتصر فيها المسلمون انتصاراً عظيماً.. ثم تتبع بيبرس بأمر من السلطان فلول التتار حتى أخرجهم من دمشق، ثم دخلها السلطان قطز منتصراً في 27 رمضان سنة 658هـ.

الملك الظاهر

بعد انتصار المسلمين في عين جالوت طلب بيبرس من السلطان قطز أن يعطيه ولاية حلب، وذلك لملاحقة التتار وتتبعهم حتى لا يطمعوا في البلاد مرة ثانية، فوعده السلطان بذلك، ولكن السلطان رأى أن يعطي حلب للملك علاء الدين، فغضب بيبرس من السلطان، واعتبر أن ذلك خلف للوعد، وظن أن السلطان يدبر له أمراً، خاصة وقد انتصر على التتار، و لم يعد في حاجة للمساعدة، وتذكر بيبرس الخلافات القديمة بين المماليك البحرية والمماليك المعزية، وقتل مماليك المعز لأستاذه أقطاي، فأشار عليه بعض المماليك بقتل السلطان.. فقتلوه حقداً وحسداً أثناء عودته إلى مصر.. ثم حار الأمراء بينهم فيمن يولون، وخشي كل على نفسه أن يصيبه ما أصاب غيره سريعاً، فاتفقت كلمتهم على أن يبايعوا بيبرس البندقداري، و لم يكن من أكابر المقدين على قتل قطز، ولكن أرادوا أن يجربوا فيه، وساروا إلى مصر وهم في خدمته، فدخل قلعة الجبل، وجلس على كرسيها، ولقب نفسه بــ "الملك القاهر أبي الفتوحات" فقال له بعض وزرائه: إن هذا اللقب لا يفلح من يلقَّب به، فكل من تلقب به قتل سريعاً، وذكروا له بعض من تلقب به، وما حدث لهم، فغير لقبه، وتلقب بـــ "الملك الظاهر"، وكان ذلك يوم الأحد 7 ذي القعدة سنة 658هــ، فحكم وعدل، وكان تقياً ورعاً، شهماً شجاعاً، أقامه الله عز وجل للمسلمين لشدة احتياجهم لمثله في هذا الوقت الشديد والأمر العسير.

ولما تولى الظاهر بيبرس السلطنة في مصر كان على دمشق الأمير علم الدين سنجر الحلبي، وكان قد ولاه عليها السلطان قطز، فلما قتل قطز نادى سنجر بنفسه سلطاناً، وتلقب بـــ "الملك المجاهد"، وطلب من الملك الأشرف موسى الأيوبي والملك المنصور الأيوبي صاحب حماة والأمير حسام الدين لاجين العزيزي صاحب حلب أن يساعدوه ويقفوا معه، ولكنهم رفضوا، وأقروا بسلطنة الملك الظاهر بيبرس وولائهم له.. فجهز الظاهر بيبرس حملة إلى دمشق، قبضت على سنجر، وجاءت به إلى القاهرة مقيداً بالأغلال و لم يمض على سلطنته المحلية أكثر من شهر، فلما رآه الظاهر بيبرس عاتبه على ما فعل، ثم عفا عنه وأطلق سراحه وأكرمه.

وفي مصر قام رجل شيعي بالقاهرة يدعى "الكوراني"، فدعا لنفسه بالسلطنة، وأراد أن يعيد النفوذ الشيعي مرة أخرى، فقبض عليه الظاهر بيبرس، وقتله وقضى على فتنته.

وهكذا استقرت الأحوال للسلطان الظاهر ركن الدين بيبرس، وصار ملكاً على مصر والشام والحجاز.. وتذكر أمنيته القديمة في أن يعيد للإسلام عزته ونصرته، فأخذ على عاتقه أن يواجه أعداء الإسلام شرقاً وغرباً.

عودة الخلافة الإسلامية

بعدما استقر الأمر للملك الظاهر بيبرس أراد أن تعود الخلافة الإسلامية، وذلك لعلمه بمدى قوة المسلمين وعزهم عندما يصبحوا تحت راية واحدة، توحدهم الخلافة الإسلامية الشرعية، وقد حقق الله له ذلك، حيث جاء إليه يوما المستنصر بالله أبو القاسم أحمد بن أمير المؤمنين الظاهر بأمر الله العباسي، وكان معتقلاً ببغداد فأطلق سراحه، وكان معه جماعة من الأعراب، فاستقبله الملك الظاهر بيبرس بقلعة الجبل، وأثبت نسب الخليفة المذكور، فبايعه الظاهر بيبرس والأمراء والعلماء، وكان هذا الخليفة هو الثامن والثلاثون من خلفاء بني العباسي، بينه وبين العباس أربعة وعشرون أباً، فخطب له على المنابر، وكتب اسمه على النقود، وكانت أول خلافته يوم الاثنين الثالث عشر من رجب سنة 659هـ، وقد جهز بيبرس موكباً عظيماً للخليفة سار إلى بغداد.. وعادت الخلافة العباسية الإسلامية على يد الظاهر بيبرس.

ولم تمض على خلافة المستنصر بالله سوى بضعة أشهر، حيث قتل في المحرم سنة 660هـ، وقام بالخلافة من بعده الخليفة أبو العباس الحاكم بأمر الله أحمد بن الأمير أبي علي القبّي.. فرحل من بغداد إلى مصر، حيث تلقاه الملك الظاهر، وأظهر له السرور، وأنزله في البرج الكبير من قلعة الجبل.. وخطب له على المنابر، وكتب اسمه على النقود مع الظاهر بيبرس.. وانتقلت بذلك الخلافة الإسلامية من بغداد إلى الديار المصرية في حماية الظاهر بيبرس.

فتوحات.. وانتصارات

كان الملك الظاهر بيبرس شجاعاً، عالي الهمة، مقداماً، جسوراً، يعمل على نصرة الإسلام وأهله، ويدافع عن ديار الإسلام بما لديه من قوة وسلطة، فكان يحارب أعداء الإسلام من التتار والصليبيين معاً، ويفتح البلدان، كما كان سياسياً ماهراً.. يعقد المعاهدات مع الملوك من أجل حماية الإسلام والمسلمين؛ فقد تحالف مع إمبراطور الدولة البيزنطية ميخائيل الثامن، كما حالف إمبراطور الدولة الرومانية الغربية وملك صقلية.. وكان القصد من هذه التحالفات عدم دعم الصليبيين وعدم العمل لإرسال حملات صليبية جديدة. كما تحالف السلطان بيبرس مع بركة خان، أمير التتار المسلم في شمال بلاد القبجاق، وتزوج بيبرس ابنته، وشجعه للعمل ضد ابن عمه هولاكو زعيم التتار المشرك.. كما شجع بيبرس الأعراب للإغارة على التتار في الداخل، وقد وصلت غاراتهم حتى بغداد.. كما عمل بيبرس على إحراق المروج التي يعتمد عليها التتار لعلف حيواناتهم عندما يهاجمون بلاد الشام.. وقوّى الجيش والأسطول.. وكان يعمل ضد الصليبيين

والتتار في وقت واحد.. وقد كان التعاون بينهما ضد الإسلام واضحاً.. لذا قرر بيبرس طرد الصليبيين من الشام.. فاستولى على قيسارية وأرسوف في فلسطين عام 664هـ، ثم هاجم قلعة صفد، واستولى عليها عام 665هـ، ثم أخذ مدينة يافا عام 666هـ، ودخل أنطاكية في 14 رمضان سنة 666هـ من جهة البحر؛ ليحول دون وصول الإمدادات إليها، كما قطع طريق ممر بيلان للغرض نفسه.

وفي عام 669هـ هاجم الظاهر بيبرس إمارة طرابلس، فاستولى على حصن الأكراد (قلعة الحصن)، واستولى على حصون عكار (القليعات – حلباً – عرقة..) ودخل طرابلس صلحاً عام 670هـ. وغزا الظاهر بيبرس قبرص التي كان يحكمها الملك "هيو الثالث"؛ عدو الإسلام اللدود، وحارب أرمينيا التي كانت دعامة للصليبيين ومنعت تصدير الخشب والحديد إلى مصر، فانتصر بيبرس على أهلها وأسر عدداً كبيراً من قادتها..

واستطاع بيبرس أن يطرد الصليبيين والتتار من معظم بلاد الإسلام ويستولي عليها، فاستولى على الشقيف؛ وهي قلعة حصينة قرب دمشق، وبغراس على يمين أنطاكية، وطبرية والقصير وأرسون والغرين وصافينا والمرقب وبلنياس وبلاد أنطرطوس وبعلبك وبصرى وصرخد وحمص وعجلون والصّلت وتدمر والرحبة وتل باشر والكرك والشوبك وشيزور والبيرة.. وغير ذلك من بلاد الشام ومن الثّغور الرومانية والتترية الحصينة.

كما تصدى الظاهر بيبرس لاعتداءات النوبيين في جنوب مصر، فذهب إليهم في قوة عام 674هـ، وتمكن من الانتصار عليهم، وفتح النوبة ودنقلة، وأسر ملكهم، ووضع الجزية عليهم، ولم يفتح أحد النوبة ودنقلة قبله مع كثرة غزو الخلفاء لها، وبهذا امتد سلطان الظاهر بيبرس واتسعت مملكته من الفرات إلى أقصى بلاد النوبة.

تعمير.. وإصلاحات

قام الظاهر بيبرس بالعديد من الإصلاحات، فعمّر الحصون، وبنى الجسور على الأنهار الكبار، وبنى دار الذهب بقلعة الجبل، وحفر أنهاراً كبيرة، وبنى جوامع كثيرة ومساجد متعددة، وجدد بناء مسجد رسول الله ﷺ حين احترق، ووضع الدرابزينات حول الحجرة الشريفة، وعمل فيه منبراً وسقفه بالذهب، وجدد المارستان (المستشفى) بالمدينة، وجدد قبر الخليل عليه السلام، وزاد في زاويته، وجدد بالقدس أشياء كثيرة كقبة السلسلة، ورمم سقف الصخرة، وجدد جامع الرملة، وبنى بحلب داراً هائلة، كما بنى في دمشق القصر الأبلق والمدرسة الظاهرية وغيرها.. فكان له أثار حسنة كثيرة رغم انشغاله في الجهاد في سبيل الله، وقيادته للعديد من الجيوش بنفسه لمقاتلة أعداء الإسلام شرقاً وغرباً.

وكان بيبرس تقياً، زاهداً، يعظم أهل الدين، ويكره الفسق والعصاة، وهو الذي أقام من كل مذهب قاضياً مستقلاً، وأبطل الخمور، وأمر بغلق الحانات، ونفى الفساق من البلاد، وكان لا يرى شيئاً من الفساد إلا سعى في إزالته بجهده وطاقته، وقد حج بيت الله الحرام سنة 667هـــ وكان بصحبته ثلاثمائة مملوك.

وفاة الظاهر بيبرس

في شهر المحرم سنة 676هـــ أوقع الحاقدون والحاسدون بين اظلاهر بيبرس والملك القاهر بهاء الدين عبد الملك بن عيسى بن أيوب، وأوحى بعضهم إلى بيبرس أن الملك القاهر يريد أن يعيد الحكم في مصر والشام إلى بني أيوب، وكان رجلاً سياسياً ماهراً، محبوباً من أهل الشام، فاستدعاه الظاهر بيبرس ذات ليلة، ودس له السم في الشراب، فشربه، ثم نسي الساقي الكأس، وأنسى الله عز وجل الظاهرَ بيبرس ذلك الكأس أيضاً، فناوله له الساقي، وكان فيه بقية من السم، فشرب الظاهر بيبرس دون أن يعلم، فاشتكى بطنه من ساعته، فنقل القاهر بهاء الدين إلى منزله فمات من ليلته، وظل الظاهر بيبرس يعاني أثر السم أياماً، ثم توفي يوم الخميس بعد الظهر 27 من المحرم سنة 676هـــ بالقصر الأبلق، ودفن بدار العقيقي بدمشق، وقام مكانه ابنه الملك السعيد محمد بركة خان.

وقد مات الظاهر بيبرس وعمره يزيد عن الخمسين عاماً، وحزنت عليه الأمة الإسلامية حزناً شديداً، حيث فقدت أسدها وأشدَّها، وحامي ديارها وثغورها، فسامحه الله، وجعل الجنة مثواه.

أشبال التوحيد

الحمد لله رب العالمين..والصلاة والسلام على إمام المربين .. المبعوث رحمة للعالمين .. سيدنا محمد .. وعلى اله وصحبه أجمعين .. أما بعد ..

فلم يعد يخفى على كل ذي بصيرة ما تبذله أنظمة الكفر العالمي وأذنابهم من جهود ضخمة في سبيل إفساد أجيال المسلمين المتعاقبة .. وما ذلك إلا لخوفهم من أن تتصل هذه الأجيال الناشئة بأسلافهم ممن ملكوا هذه الدنيا بأيديهم بعد أن أخرجوها من قلوبهم .. فطوعوا أنفسهم لنصرة دينهم .. فذلت لهم رقاب الجبابرة..

وإيمانا منا نحن إخوانكم في منبر التوحيد والجهاد أن تنشئة هذه الأجيال على عقيدة الإسلام وأخلاقه؛ على هذا النبع الصافي – توحيد وجهاد – إيمانا منا أن ذلك لا بد أن يكون من أولويات الدعاة المربين .. وان ذلك هو أشد على الكفار من رميهم بالنبل .. فقد شرعنا بنشر هذه الرسائل

الموجهة لأشبال التوحيد .. والتي نسأل الله أن تكون عونا لكافة إخواننا واخواتنا في تنشئة ذلك الجيل الفريد..

فإلى أشبال التوحيد .. نهدي هذه الكلمات..

والله من وراء القصد

منبر التوحيد والجهاد
www.tawhed.ws
www.alsunnah.info
www.almaqdese.net

سلسلة القادة والفاتحون

محمد الفاتح

صاحب البشارة

إعداد

سلامة محمد سلامة



بسم الله الرحمن الرحيم

جلس السلطان العثماني "مراد الثاني" على كرسي العرش مهموماً حزيناً فور تلقيه خبر وفاة أكبر أبنائه الأمير "علاء الدين" ولي عهده، وأحد قادته العظام الذين شاركوه حروبه الطويلة ضد أعداء الدولة العثمانية، واستغرق السلطان في تفكير عميق، ورجع بذاكرته إلى سنوات حكمه الطويلة، وما لاقاه فيها من أهوال ومتاعب أثرت في صحته كثيراً، وظل السلطان جالساً في مكانه ساعات طوالا لا يتحرك، وفجأة شب واقفاً وهو يقول بصوت يملؤه الحزن: سوف أتنازل عن عرشي لولدي، نعم هذا هو الرأي السديد، وأخذ السلطان يقنع نفسه بهذا القرار الخطير قائلا: ولماذا لا أتنازل عن عرشي لولدي محمد؟! وقد نشأ في جواري، وتعهدته منذ مولده بالرعاية والعناية؛ ليكون جديراً بالسلطنة والنهوض بمسئولياتها، فأتم حفظ القرآن الكريم، وقرأ الحديث، وتعلم الفقه، ودرس الرياضيات والفلك، وتعلم العربية والفارسية واللاتينية واليونانية والصربية، كما تدرب على كافة فنون الحرب والقتال.

ونفّذ السلطان قراره الجريء، ورفع ولده على العرش سنة (848هـ) الموافق (1444م) وكان عمره آنذاك اثني عشر عاماً.

لكن أوربا لم تترك السلطان العثماني يهنأ بقراره، وينعم بالراحة والهدوء، فانتهزت هذه الفرصة الثمينة ونقضت جميع معاهداتها مع الدولة العثمانية، وجهزت حملة عسكرية كبيرة تحت قيادة ملك المجر لطرد العثمانيين من بلاد البلقان، وعندما علم السلطان الصغير "محمد الثاني" بأمر هذه الحملة أدرك بنبوغه المبكر وذكائه المتقد خطورة الموقف فأرسل من فوره إلى والده السلطان، والذي يعلم مدى خبرته وحنكته الطويلة في الحرب ليعود إلى عرشه، ويدافع عن ملكه، فرفض السلطان العظيم طلب ولده، وأخبره قائلاً: "أي بني.. إن قيادة الجيش هي مهمة سلطان البلاد، وأنت سلطان البلاد فتولّ أنت أمر قيادتك". فما كان من السلطان الذكي إلا أن أرسل إلى والده رسالة يقول له فيها:

(إن كنت أنا سلطان البلاد فإنا نأمرك أن تعود الآن إلى عرشك).

فوافق السلطان العظيم على طلب ولده الحبيب وتسلم القيادة العسكرية، وتحرك على رأس جيشه المكون من (40000) مقاتل، والتقى مع الجيوش الأوربية في معركة "فارنا" فهزمها شر هزيمة، وحقق نصراً غالياً أسعد العالم الإسلامي كله آنذاك.

وبعد هذا النصر العظيم تنازل السلطان مرة ثانية عن عرشه لولده "محمد" الذي يحبه كثيراً، ويتمنى أن يكون أعظم سلاطين البلاد، لكن الأحداث لم تترك السلطان "مراد الثاني" هادئاً هانئاً؛ فقد جهزت أوربا جيشاً جرّاراً من (100) ألف مقاتل لتثأر من هزيمتها الساحقة، فاضطر السلطان أن يعتلي العرش مرة ثانية، ويخوض معركة شرسة في منطقة "كوسوفا"، وكان الأمير "محمد" يقاتل إلى جوار أبيه في هذه المعركة الشرسة قتال الأبطال الشجعان، حتى كتب الله للجيش العثماني النصر المبين على أعدائه.

أراد السلطان "مراد الثاني" إرضاء ولده العزيز "محمد" فاحتفل بتزويجه، ثم توليته إمارة "مغنيسيا" ليتدرب جيداً على إدارة شئون الدولة وتدبيره أمورها، وجعل في صحبته مجموعة من كبار علماء عصره، كان في مقدمتهم الشيخ "آق شمس الدين"، والشيخ "أحمد بن إسماعيل الكوراني"، وكان ذلك في أواخر سنة (854هـ) (1450م)، وقد أثرت هذه الفترة في شخصية الأمير "محمد" كثيراً، وأصبح بفضل توعية أساتذته، وقراءاته المتعددة أكثر الأمراء العثمانيين حباً للعلم والعلماء، ودراية بالأمور السياسية والعسكرية، وقد نجح شيوخه في أن يبثوا في روحه حب الجهاد، والتطلع إلى معالي الأمور، ويلمحوا له بأنه المقصود ببشارة النبي ﷺ التي قال لها: (لتفتحن القسطنطينية، فلنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش). فشبّ الأمير طامح النفس، عالي الهمة، شجاعاً قوياً، حكيماً ذكياً، و لم يطل المقام بالأمير الشاب بإمارة "مغنيسيا"؛ وذلك بعد أن وصله خبر وفاة أبيه السلطان، فحزن لذلك حزناً عميقاً، إلا أنه تغلب على أحزانه، وحبس دموعه، وامتطى صهوة جواده يسابق الريح إلى "أدرنة" عاصمة الخلافة، وجلس على عرش آبائه يكمل مسيرتهم نحو رفعة البلاد والعباد، وكان ذلك يوم الخامس من المحرم سنة (855هـ) الموافق السابع من فبراير (1451م)، وكان عمره آنذاك تسعة عشر عاماً.

***

وقف السلطان الشاب "محمد الثاني" في شرفة قلعة الأناضول على الضفة الآسيوية من مضيق "البسفور" – تلك القلعة التي بناها جده "بايزيد الأول" أثناء محاولته فتح مدينة القسطنطينية – وأخذ يقول لمستشاريه من حوله في نبرة يعلوها الحزن: كيف تقف تلك المدينة صامدة كالجبال أمام جميع المحاولات لفتحها؟! إنها تعترض طريق فتوحاتنا إلى أوربا، وتجعل حدود بلادنا غير متصلة، ولا بد من إيجاد طريقة لفتحها!!

ثم سكت السلطان برهة أخذ يمنّي نفسه فيها بتحقيق ذلك الحلم العظيم الذي يراوده كثيراً، ودعا الله أن يكون هو محل بشارة النبي ﷺ وما هي إلا أيام معدودات حتى بدأ

السلطان الهمام يعد العدة، ويضع الخطط المحكمة لتحقيق حلمه الكبير، وكانت أولى خطواته أنه أمر ببناء قلعة كبيرة في مواجهة قلعة الأناضول ليتحكم في مضيق "البوسفور"، وقد وضع السلطان تخطيط هذه القلعة بنفسه، كما اشترك في عملية بنائها حتى تمت المهمة في زمن قياسي في نحو أربعة أشهر فقط، وقد أطلق السلطان على هذه القلعة اسم "روملي حصار".

وبعد أن تم البناء أمر السلطان بصب عدد كبير من المدافع الضخمة، وكان على رأسها مدفع عملاق لم يشهده العالم من قبل، كما قام ببناء سفن جديدة، ووضعها في بحر "مرمرة" لكي تسد مضيق "الدردنيل".

مع مشرق شمس يوم 26 من ربيع الأول سنة (857هـ) الموافق (6 من أبريل) سنة (1453م) بدأ السلطان زحفه العظيم نحو أسوار القسطنطينية بجيش جرار مؤلف من عدد كبير من القوات البرية والبحرية والمدفعية الضخمة، وعندما وصل إلى هدفه المنشود ضرب حصاره البري والبحري حول المدينة، ثم أعطى أوامره للمدفعية الجبارة فأخذت تدكّ بقذائفها الهائلة أسوار المدينة، وكان لصوت القذائف وهي ترتطم بالأسوار دوي هائل ملأ قلوب أهل القسطنطينية رعباً وهلعاً.

وعلى الرغم من شدة الحصار وقوة الضربات إلا أن الجيش العثماني لم يستطع أن يفتح ثغرة ينفذ منها خلال تلك الأسوار الحصينة، كما فشلت السفن العثمانية في دخول "الخليج الذهبي" لكي تسيطر على هذا الميناء المهم، وتحاصر المدينة من أضعف جوانبها؛ فقد نجح البيزنطيون في إغلاق الخليج بسلسلة حديدية ضخمة، وهنا ظهرت براعة القائد العظيم، وأعلنت عن موهبة فطرية فذة في فنون الحرب والقتال والتخطيط؛ وذلك بعد أن وضع السلطان خطة رائعة قام فيها بإنزال (67) سفينة من السفن الخفيفة عبر البر إلى داخل الخليج الذهبي حتى تتفادى السلسلة الحديدية، وتمت العملية بنجاح باهر، قام فيها الجنود بوضع ألواح خشبية على الأرض، وقاموا بصب الزيت فوقها، ثم وضعوا السفن فوق هذه الألواح، وأخذوا يدفعونها إلى الأمام فانزلقت بسهولة بالغة، وكان منظر السفن بأشرعتها المرفوعة وهي تسير وسط قمم الجبال وبين الأشجار – كما لو كانت تمخر عباب البحر – من أعجب المناظر وأكثرها إثارة ودهشة، وما إن جاء الصباح إلا وتملكت الجنود البيزنطيين الدهشة لهذه المعجزة التي لم يسمع أحد بمثلها، ولم ير أحد مثلها من قبل.

أرسل السلطان "محمد الثاني" إلى الامبراطور البيزنطي "قسطنطين" للمرة الثانية يطلب منه تسليم المدينة بسلام حقناً للدماء، وله أن ينسحب إلى أي مكان يريده بكل أمواله،

وتعهد السلطان بتأمين أهل المدينة على أموالهم وأرواحهم وممتلكاتهم، لكن الإمبراطور رفض طلبه، عندئذ أمر السلطان جنوده بالاستعداد للهجوم الأخير، كما حثهم على الصيام والإكثار من ذكر الله والدعاء، وبعد أن أدى السلطان صلاة فجر يوم الثلاثاء (20) من جمادى الأولى سنة (857هـ) الموافق (29) من مايو (1453م) أمر السلطان بالهجوم العام، فاندفع الأبطال نحو الأسوار كالسيل المنهمر، وكان لتكبيرهم دوي هائل يرعب القلوب، ويزلزل النفوس، ولاحت بشائر الفتح العظيم عندما أحدثت قذائف المدفع الجبار فتحة كبيرة في سور المدينة، فتدافع الجنود نحو الداخل في حماس وضراوة، وهم لا يهابون الموت، وكلهم يطلب الشهادة في سبيل الله، وتمكن بعضهم من فتح الأبواب فسقطت المدينة الحصينة التي استعصت على جميع الفاتحين من قبل، على يد السلطان الشاب "محمد الثاني".

فحقق أملا غالياً ظل يراود المسلمين نحو ثمانية قرون، فلقب بعد هذا الفتح "بمحمد الفاتح"، وصار لا يعرف إلا بهذا الاسم.

***

دخل السلطان "محمد الفاتح" مدينة القسطنطينية في تواضع وخضوع شديد وسط تكبير وتهليل من جنوده الشجعان، وما إن رأى البيزنطيون السلطان حتى خروا جميعاً ساجدين، وكان لهم أنين وبكاء مرتفع، فنزل السلطان من فوق ظهر جواده، وخر ساجداً لله يشكره على توفيقه له بالفتح، فلما نهض ووجد شعب بيزنطة ورهبانه على هذه الحالة من السجود أخذته دهشة شديدة، وقال في صوت مرتفع: (انهضوا.. لا تخشوا بعد هذه اللحظة على حياتكم ولا على حريتكم)، ثم أمر جنوده بعدم التعرض لهم بأي أذى، وطلب من البيزنطيين العودة إلى ديارهم آمنين على أنفسهم وأموالهم، وسمح بعودة الذين غادروا المدينة أثناء الحصار إلى منازلهم، وكفل جميع الطوائف ممارسة عباداتهم في حرية كاملة، كما أطلق سراح الأسرى نظير مقابل ماديي قليل، وقد أذهل السلطان بتصرفه هذا الذي ينمّ عن رحمة كبيرة وتسامح عظيم، جميع الناس من حوله.

قرر السلطان الفاتح أن يتخذ "القسطنطينية" عاصمة لدولته، وأطلق عليها "إسلام بول" أي دار الإسلام، وأمر ببناء مسجد عظيم بجوار قبر الصحابي الجليل "أبي أيوب الأنصاري" الذي استشهد أثناء حصار "القسطنطينية" في خلافة "معاوية بن أبي سفيان".

اجتمع مجلس شورى السلطنة وعلى رأسهم السلطان الفاتح لبحث أمور البلاد بعد الفتح، وبعد مداولات ومناقشات طويلة اجتمع رأيهم على ضرورة توقف العمليات

العسكرية فترة من الزمن، والاهتمام بتوطيد دعائم السلطنة من الداخل حتى تصمد أمام أطماع أعدائها، وهنا تحدث الفاتح بما يدل على خبرته الواسعة، ونبوغه العسكري المبكر قائلا: (إن أوربا لن يهدأ لها بال بعد هذا الفتح العظيم، وإنها لن تتركنا نهدد عرشها، ونحصد بلدانها الواحدة تلو الأخرى، ولا بد أنها الآن تعد جيوشها لطردنا من القسطنطينية، بل القضاء على دولتنا الفتية).

وكان ما توقعه السلطان الشاب؛ فقد اتحدت الجيوش الأوربية لمحاربته، فقرر السلطان أن يداهمهم بجيوشه الجرارة، ويشتت شملهم، ويفسد خططهم، ويؤمّن حدود دولته المسلمة التي أصبحت من أقوى دول العالم وأكبرها، فهاجم بلاد الصرب وفتحها، ثم فتح بلاد المورة (اليونان)، وبلاد الأفلاق والبغدان (رومانيا)، كما أخضع إمبراطورية "طرابِزُون" وإمبراطورية "القرمان" بآسيا الصغرى، وألبانيا، والبوسنة والهرسك، ودخل في حرب طويلة مع بلاد المجر، فأذهل العالم بفتوحاته الباهرة، وخططه المحكمة، وفكره المتقدم.

ولم تشغل تلك الفتوحات العظيمة السلطان الفاتح عن الاهتمام بشئون بلاده الداخلية، فلقد كان رجل دولة من طراز رفيع نجح في تنظيم حكومته تنظيماً إدارياً وقضائياً عظيماً بلغ من الإتقان بحيث فاق جميع الدول المعاصرة، واستطاع بالتعاون مع كبير وزرائه وكاتبه أن يضع دستوراً للبلاد من الشريعة الإسلامية جعله أساساً لحكم دولته، واشتهر بأنه راع للعلم والثقافة، شديد الاحترام للعلماء ورجال الدين والمتعلمين، شاعر مجيد مرهف الحس، له ديوان شعر رقيق، كما كان عاشقاً للبناء والعمران فقد شيّد كثيراً من المساجد والمدارس والمعاهد العلمية والمكتبات والمستشفيات والحمامات العامة والأسواق والحدائق، ومن أشهر إنجازاته العمرانية جامعة "إستانبول"، وسراى "طوب قبو". وجامع "السلطان محمد"، وجامع "الشيخ البخاري".

***

كانت أعظم أمنية للسلطان الفاتح أن يرى نور الإسلام يشرق على ربوع الدنيا بأسرها فتنعم بعدله وسماحته، بعد أن عاشت قروناً تحت نير الظلم والقهر والعدوان، فظل ثلاثين عاماً مجاهداً يحمل راية الإسلام عالية خفاقة، وينتقل من نصر إلى نصر، ومن فتح إلى فتح، وعلى الرغم من تعبه الشديد فإنه أصر على استكمال مسيرته، فوجه جيشه المظفر نحو إيطاليا ليتخذها قاعدة ينطلق منها نحو جميع أوربا، ففتح مدينة "أوترانتو"، وقرر أن يزحف شمالا نحو "روما" وفي الطريق أصاب السلطان الفاتح تعب شديد لم يحفل به وأكمل سيره حتى اشتد به المرض، ولم تمض أيام قليلة حتى وافته المنية، وصعدت روحه

الطاهرة إلى بارئها، فمات رحمه الله في ميدان الجهاد وسط جيشه المنتصر، في ليلة الجمعة الخامس من ربيع الأول سنة (886هـ)، الثالث من مايو (1481م)، وهو في سن الحادية والخمسين من عمره، وكما بكاه شعبه التركي الذي أخلص له وأحبه أشد الحب، بكاه المسلمون في جميع أقطار الأرض وحزنوا لوفاته أشد الحزن.

وقد ترك السلطان العظيم وصية رائعة لولده وخليفته من بعده قال له فيها: (ها أنذا أموت ولكني غير آسف لأني تارك خلفاً مثلك.

كن عادلا صالحاً رحيماً، وابسط على الرعية حمايتك بدون تمييز، واعمل على نشر الدين الإسلامي، فإن هذا هو واجب الملوك على الأرض.

وسِّع رقعة البلاد بالجهاد، واحرس أموال بيت المال من أن تتبدد.

إياك أن تمد يدك إلى مال أحد من رعيتك إلا بحق الإسلام، واضمن للمحتاجين قوتهم، وابذل إكرامك للمستحقين.

وبما أن العلماء هم بمثابة القوة المهمة في جسم الدولة، فعظم شأنهم وشجعهم، وإذا سمعت بأحد منهم في بلد آخر فاستقدمه إليك، وأكرمه بالمال.

حذار حذار لا يغرنك المال ولا الجند، وإياك أن تبعد أهل الشريعة عن بابك، وإياك أن تميل إلى أي عمل يخالف أحكام الشريعة، فإن الدين غايتنا، والهداية منهاجنا، وبذلك انتصرنا.

خذ مني هذه العبرة: حضرت هذه البلاد كنملة صغيرة، فأعطاني الله تعالى هذه النعم الجليلة، فالزم مسلكي، واحذ حذوي، واعمل على تعزيز هذا الدين وتوقير أهله، ولا تصرف أموال الدولة في ترف أو لهو، أو أكثر من قدر اللزوم، فإن ذلك من أعظم أسباب الهلاك).

***

أشبال التوحيد

الحمد لله رب العالمين..والصلاة والسلام على إمام المربين .. المبعوث رحمة للعالمين .. سيدنا محمد .. وعلى اله وصحبه أجمعين .. أما بعد ..

فلم يعد يخفى على كل ذي بصيرة ما تبذله أنظمة الكفر العالمي وأذنابهم من جهود ضخمة في سبيل إفساد أجيال المسلمين المتعاقبة .. وما ذلك إلا لخوفهم من أن تتصل هذه الأجيال الناشئة بأسلافهم ممن ملكوا هذه الدنيا بأيديهم بعد أن أخرجوها من قلوبهم .. فطوعوا أنفسهم لنصرة دينهم .. فذلت لهم رقاب الجبابرة..

وإيمانا منا نحن إخوانكم في منبر التوحيد والجهاد أن تنشئة هذه الأجيال على عقيدة الإسلام وأخلاقه؛ على هذا النبع الصافي – توحيد وجهاد – إيمانا منا أن ذلك لا بد أن يكون من أولويات الدعاة المربين .. وان ذلك هو أشد على الكفار من رميهم بالنبل .. فقد شرعنا بنشر هذه الرسائل

الموجهة لأشبال التوحيد .. والتي نسأل الله أن تكون عونا لكافة إخواننا واخواتنا في تنشئة ذلك الجيل الفريد..

فإلى أشبال التوحيد .. نهدي هذه الكلمات..

والله من وراء القصد

منبر التوحيد والجهاد
www.tawhed.ws
www.alsunnah.info
www.almaqdese.net

سلسلة القادة والفاتحون

خالد بن الوليد

سيف الله

إعداد

سمير حلبي



بسم الله الرحمن الرحيم

أشرق نور الإسلام ليغمر أرجاء مكة بالخير والهداية، ويحمل إلى أهلها الهدى والرشاد، فآمن من آمن من أهلها، ولكنهم ظلوا يكتمون إيمانهم خوفاً من بطش قريش، وسطوة المشركين الذين امتد أذاهم إلى كل من آمن بالنبي ﷺ ، لا يفرقون بين حر وعبد، ولا بين رجل وامرأة، ولا شيخ كبير أو طفل صغير.

وكان الوليد بن المغيرة واحداً من أولئك الطغاة الجبارين، الذين يتعرضون بالأذى كل يوم للنبي ﷺ ولمن آمن به من المسلمين.

كان الوليد يتمتع بمكانة عظيمة في قومه بني مخزوم – إحدى قبائل قريش – التي كان لها شهرة عظيمة وسطوة كبيرة، وكانت تلك المكانة لا تزيده إلا غروراً وكبراً، فأظهر العداوة للنبي ﷺ ، وامتد شره وطغيانه إلى المسلمين، وبخاصة العبيد والضعفاء.

وعندما سمع الوليد النبي ﷺ يقرأ القرآن، لم يتمالك نفسه من الإعجاب بما يسمع، وانطلق لسانه – رغماً عنه – يترجم هذا الإعجاب بالرغم من عدم إيمانه به؛ فيقول:

- (والله لقد سمعت منه كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن، وإن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدوق، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه، وما يقول هذا بشر!!)

وما إن سمع المشركون قوله هذا حتى تملكهم الخوف والفزع، وخشوا أن يتناقل الناس قوله؛ فتكون فتنة لهم، ويدفعهم ذلك إلى الإيمان بالنبي محمد ﷺ ، فسارعوا إليه ينكرون عليه ما قاله، ويتهمونه بالكفر والخروج عن دينهم، فشعر الوليد بخطورة قوله، ولكنه لم يجد ما يبرر به هذا الإعجاب، فقال بتردد:

(ما هو إلا ساحر!! أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده؟!).

ورضي المشركون بهذا التبرير، واطمأنت نفوسهم إلى ثبات الوليد على دين آبائه وأجداده.

وكان الوليد جباراً شديداً في بيته وعلى أبنائه، كما هو خارج بيته، فلم يكن أحد من أبنائه الأربعة: خالد والوليد وهشام وعمارة يجرؤ على عصيانه أو حتى مخالفته في أي أمر مهما بعد عن الصواب.

وبالرغم مما كان يتمتع به "خالد بن الوليد" من قوة وشجاعة، وما عرف به من الجرأة والفروسية، فإنه شب في ظل أبيه، فاكتسب منه كثيراً من الصفات، وورث عنه كثيراً من الطباع والأخلاق، وكان أكثر ما ورثه من أبيه تلك العداوة الشديدة والكراهية العجيبة للإسلام والمسلمين.

وكان خالد شاباً فتياً عندما أخذ الإسلام ينتشر في مكة، وتحركت كراهيته للمسلمين، ليصب عليهم عداوته وغضبه، ويشارك المشركين في عدوانهم على النبي ﷺ وأصحابه، دون أن يسأل نفسه يوماً عن أسباب تلك العداوة، ودوافع تلك النقمة.

وكان أول موقف برز فيه خالد هو غزوة أحد، فبالرغم من الهزيمة الساحقة التي نزلت بالمشركين في أول جولة من الحرب، فإن خالداً ظل قوياً متماسكاً، فلم تضعف عزيمته كما حدث لكثير من أبطال قريش الذين فروا هاربين بعد أن رأوا سيوف المسلمين تحصد رقاب المشركين، وأشلاء القتلى تنتشر في كل مكان.

ظل "خالد" يقظاً ثابت النفس يرتقب ثغرة ينفذ منها إلى الجيش المنتصر، ليحول هزيمة قومه إلى نصر سريع، وأدرك "خالد" ببصيرته العسكرية النافذة أن الفرصة قد أصبحت سانحة له لتحقيق خطته حينما رأى أن الرماة الذين وقفوا على جبل عينين – عن يسار أحد – قد تخلوا عن أماكنهم، وانطلقوا يطاردون فلول المشركين الفارين – مخالفين بذلك أوامر النبي ﷺ بالثبات في أماكنهم – وقد ظنوا أن النصر قد أصبح محققاً للمسلمين بعد تلك الهزيمة النكراء التي لحقت بالمشركين؛ فقرر خالد مفاجأة المسلمين بالالتفاف من خلفهم، والقضاء على العدد القليل الذي بقي من الرماة فوق الجبل، ومهاجمة جيش المسلمين والانقضاض عليهم.

وفوجىء المسلمون بما حدث؛ فاضطربت صفوفهم، وانتشرت الفوضى، وعم الخلل والاضطراب، وتبدل الموقف، وتحولت هزيمة المشركين إلى نصر.

وفي غزوة الخندق كان "خالد بن الوليد" أحد الفرسان الذين دفعت بهم قريش لاقتحام الخندق، وظل يطوف بالخندق في كتيبته، يبحث عن ثغرة ينفذ منها إلى

المسلمين، وقد تصدى له النبي ﷺ وأصحابه، وظل القتال دائراً حتى أظلم الليل، واستمر حصار المشركين للمسلمين، إلى أن كشف الله البلاء عن المسلمين، ونصرهم على عدوهم، فأرسل على المشركين ريحاً شديدة اقتلعت خيامهم، وجعلتهم يفرون عائدين.

وكان تعلق المسلمين بدينهم واستشهادهم في الدفاع عنه، وتحملهم كل صنوف الأذى والعذاب في سبيله، يثير الحيرة العجب في نفس خالد، وظل خالد في حيرة من أمره، يعاني صراعاً شديداً ين ما ألفه وتوارثه عن آبائه وأجداده من الشرك والوثنية وعادات الجاهلية القبيحة، وبين ما سمعه عن الإسلام من سمو وقداسة، وما يدعو إليه ذلك الدين من خير ورشد وهداية، فتطلعت نفسه إلى الإسلام، وهفت روحه إلى ما فيه من خير ورفعة، ولكنه ظل متردداً في أمره، يتخبط في مخاوفه وأفكاره، حتى جاءته رسالة من أخيه "الوليد"، يذكر له ثناء النبي ﷺ عليه، ورغبته في دخوله الإسلام، فكان لها أكبر الأثر في تغلبه على حالة التردد التي كان يعاني منها، وسارع بالدخول في الإسلام.

وقد تأخر إسلام خالد إلى ما بعد الحديبية، وكانت هجرته إلى المدينة سنة ثمان من الهجرة، فلما قدم إليها مع "عمرو بن العاص" و "عثمان بن طلحة"، قال النبي ﷺ لأصحابه:

- (رمتكم مكة بأفلاذ كبدها!!)

وشارك "خالد" في غزوة مؤتة لقتال الروم، وكان على رأس الجيش "زيد بن حارثة"، وكان جيش الروم يزيد على مائة ألف من الروم الذين انضم إليهم نحو مائة ألف آخرين من قبائل العرب المتحالفة مع الروم، في حين كان جيش المسلمين لا يزيد على ثلاثة آلاف فارس.

***

والتقى الجيشان في معركة غير متكافئة، وقاتل المسلمون بشجاعة ظاهرة، وبطولة نادرة، فقتل زيد، فتولى القيادة "جعفر بن أبي طالب"، فاستشهد أيضاً، وتولى القيادة "عبد الله بن رواحة"، فلما قتل اختار المسلمون "خالد بن الوليد" قائداً على الجيش.

واستطاع "خالد" أن يعيد تنظيم صفوف جيش المسلمين، وأظهر من البراعة والخبرة العسكرية ما جعله يصمد أمام جيش الروم، ويحافظ على جنوده، ويعود بهم إلى المدينة سالمين!!

وقد أطلق عليه النبي ﷺ سيف الله المسلول؛ لما أظهره من بطولة وشجاعة.

وشارك "خالد بن الوليد" في القتال مع المسلمين في فتح مكة، وكان النبي القائد ﷺ قد بنى خطته العسكرية لفتح مكة فتحاً سلمياً، حتى لا تراق فيه الدماء، معتمداً في ذلك على السرية وتحقيق عنصر المفاجأة.

وجعل النبي ﷺ "خالد بن الوليد" على الميمنة، وكانت تلك أول إمارة رسمية لخالد، وكان عليه أن يدخل مكة من موضع "الليط"، وكان معه أكثر من ثلث جيش المسلمين، مما يؤكد ثقة النبي ﷺ في خالد، وتقديره لعبقريته العسكرية، وقدراته القتالية المتميزة.

وبعد أن أتم الله فتحه للمسلمين، أرسل النبي ﷺ خالداً في ثلاثين فارساً إلى غطفان؛ ليحطم واحداً من أكبر أصنام العرب، ويمحو "العزّى" التي كانت من أكبر معاقل الشرك والوثنية في بلاد العرب.

وفي غزوة حنين كان "خالد" على طليعة جيش المسلمين، وكان جيش المسلمين كبير العدد، كثير السلاح؛ مما دفع كثيراً من المسلمين إلى التراخي، والاستهانة بعدوهم، واغتروا بقوتهم وكثرة عددهم، ففاجأهم المشركون من كل ناحية، مما اضطر "خالد بن الوليد" إلا الانسحاب بكتيبته؛ ليعيد تنظيم صفوفه، ويتدارك موقفه من جديد، ثم يعاود الهجوم على المشركين مرة أخرى، ويدافع عن النبي ﷺ ببسالة وبطولة، فلما رآه المسلمون دب الحماس في قلوبهم، وأقبلوا يقاتلون بشجاعة وحماس، حتى كتب الله النصر للمؤمنين.

وكان لانتصار المسلمين في تلك الغزوة أكبر الأثر في بث الرعب والفزع في قلوب قبائل العرب من المشركين، ولكن المسلمين لم يهنئوا طويلا بهذا النصر، فسرعان ما جاءت الأنباء بأن الروم حشدت جموعاً كثيرة في الشام استعداداً لمهاجمة المسلمين، وأنهم استطاعوا استمالة بعض قبائل الأعراب على الحدود الفاصلة بين الجزيرة العربية وبلاد

الروم، فدعا النبي ﷺ للاستعداد للقتال والمسير إلى الشام، وانطلق النبي ﷺ ومعه المسلمون، حتى وصل إلى تبوك، ولكنه لم يلق أحداً من الروم، فأقام بها بضعة عشر ليلة، ثم عاد إلى المدينة.

وأرسل النبي ﷺ "خالد بن الوليد" من تبوك إلى دومة الجندل، واستطاع "خالد" ان يأسر قائدهم "أكيدر" وأخاه، وعاد بهما إلى النبي ﷺ فصالحهما على الجزية، وأمَّنهما على نفسيهما وقومهما.

ثم أرسل النبي ﷺ خالداً إلى ثقيف ليهدم "اللات" كما هدم "العزّى" من قبل، ثم بعثه إلى نجران ليعلمهم شرائع الإسلام.

ولكن خالداً الذي عشق الفروسية عاوده الحنين إلى الجهاد، فكتب إلى النبي ﷺ يبلغه أنه أدى مهمته، ويظهر له رغبته في مواصلة الجهاد في سبيل الله.

وتوفي النبي ﷺ وتولى "أبو بكر الصديق" خلافة المسلمين، وارتد من ارتد من قبائل العرب، وتكالب أهل الشرك وأعداء الإسلام على دولة الإسلام الوليدة، يريدون الفتك بها، وطمع الأعراب من سكان البادية في المسلمين، وظنوا أن الفرصة قد أصبحت سانحة للانقضاض عليهم، ولكن أبا بكر تصدى لتلك الفتنة بشجاعة وحزم، وكان سيف الله خالد خير عون للخليفة رسول الله في القضاء على مدعي النبوة ومانعي الزكاة والمرتدين، و لم يكن خالد في حاجة إلى وصية الصديق الخالدة:

- (احرص على الموت توهب لك الحياة!)

فقد كانت همته عالية وروحه وثابة إلى القتال، يحدوه في كرّه وفرّه وقتاله الإيمان بالله والرغبة في الفوز بإحدى الحسنيين: إما النصر أو الشهادة.

واستطاع "خالد" أن ينزل الهزائم الساحقة بجماعات المرتدين وقبائل العرب الخارجة عن الإسلام، فهزم طليحة الأسدي وأصحابه، وكان ممن تزعم حركة الردة، وتتبع قبائل المرتدين والموالين لهم، في حملة تأديبية واسعة.

ثم انطلق بعد ذلك إلى اليمامة لقتال بني حنيفة قوم مسيلمة الكذاب الذي ادعى النبوة وارتد عن الإسلام، ودار قتال عنيف بين الفريقين، حتى استشهد عدد كبير من الصحابة من حفظة القرآن الكريم، فحمل خالد في أصحابه على مسيلمة وأتباعه، فقتلوا مسيلمة وكثيراً من المرتدين الذين احتموا بحديقة الموت، فلم يكد نبأ مصرع مسيلمة يسري بين أتباعه حتى خارت عزيمتهم، ووهنت قوتهم، وانفرط عقدهم، وولوا منهزمين.

وكان لخالد دور بارز في تلك الحملات التي أعادت الأمن والسلام إلى أرجاء الجزيرة العربية، بعد أن أعادت الكثيرين منهم إلى رحاب الإسلام، وحفظت هيبة الإسلام ومكانته في قلوب أعدائه، فانطفأت نيران تلك الفتنة الخطيرة.

واستمر خالد يحقق المزيد من البطولات والانتصارات للإسلام والمسلمين، ويسجل صفحات مشرقة من الأمجاد والبطولات، كما ساهم بنصيب وافر في الفتوحات الإسلامية في العراق وفارس، واستطاع أن ينزل الهزائم المتلاحقة بالفرس والروم، فانتصر على الفرس في العراق، وهزمهم في ذات السلاسل والمذار، وظل يلحق بهم الهزائم في الولجة وألَّيْس وأمغيشيا، حتى فتح الحيرة، وغزا الفرس في عقر دارهم، وانتصر عليهم في الأنبار وعين التمر.

وتعاقبت انتصارات خالد على الفرس في الخنافس والحصيد والفراض التي كانت آخر معارك خالد مع الفرس في العراق.

كما كانت له انتصارات خالدة، وأمجاد عظيمة، وبطولات نادرة مع الروم بعد أن قذف الله في قلوبهم الرعب منه، بعد انتشار أنباء انتصاراته على الفرس، وقد أدرك الخليفة "أبو بكر الصديق" تلك الحقيقة حينما وقع اختياره على خالد للتصدي للروم، فقال:

– (والله لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد!!).

فنصره الله عليهم في اليرموك، وقد تجلت عبقرية خالد العسكرية ومهاراته وخبرته كقائد بشكل واضح في تلك المعركة؛ فقد سلك خالد طريقاً غير مألوف عبر الصحراء مختصراً الطريق؛ ليفاجىء الروم قبل أن تصلهم أنباء تحرك جيش المسلمين إليهم، كما أعاد تنظيم صفوف الجيش، وعبأه على نحو لم تألفه العرب من قبل، وجعله كتائب، وصفّه بشكل يكثر عددهم في أعين عدوهم؛ ليلقي فيهم الرهبة والخوف، وبالرغم من أن جيش الروم كان يزيد عنهم بنحو خمسة أضعاف إلا أن النصر كان حليفاً لجيش المسلمين.

وبينما كانت المعركة على أشدها بين المسلمين والروم، جاء البريد إلى خالد بنبأ وفاة الخليفة أبي بكر الصديق، واستخلاف عمر بن الخطاب، وعزله عن قيادة الجيش، وتولية أبي عبيدة بن الجراح الإمارة العامة للجيش، ولكن خالدً كتم الأمر حتى نهاية المعركة؛ ليجنب المسلمين فتنة الخلاف والشقاق، وبعد أن تحقق النصر للمسلمين سلم خالد الرسالة إلى أبي عبيدة، كما سلم إليه مقاليد القيادة.

ولكن خالداُ لم تقف به همته وطبيعته العسكرية – فبالرغم من قرار عزله عن قيادة الجيش – إلا أن ذلك الأمر لم يؤثر على أداء خالد العسكري، ولم يصرفه عن المشاركة في الفتوحات كجندي من جنود المسلمين، وواحد من فرسانهم، فقد شارك في أجنادين ومرج الصفر وحصار دمشق وفتحها، كما شارك في فتح قِنَّسْرين، وشهد فتح بيت المقدس، وكان مثالا صادقاً للجندية الحقة، كما كان نموذجاً فريداً للقائد العظيم.

وكانت له مواقفه الجريئة وبطولاته النادرة حتى قال عنه عمر بن الخطاب:

(أمّر خالد نفسه..رحم الله أبا بكر هو كان أعلم مني بالرجال!!)

وكانت ثقة خالد قوية في نفسه، وقد افتتن به كثير من الناس، ونسبوا إليه ما بلغه المسلمون من أمجاد وانتصارات، فأصدر الخليفة عمر بن الخطاب أمراً بعزل خالد نهائياً عن الجيش، وقد أوضح ذلك في خطبته في الناس، فقال:

(إني لم أعزل خالد عن سخطة ولا خيانة، ولكن الناس فتنوا به، فخفت أن يوكلوا إليه ويبتلوا به، فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع، وألا يكونوا بعرض فتنة).

واستسلم خالد لأمر العزل في شيء من الحزن والأسف، فقد كان الجهاد في سبيل الله هو قرة عينه ومطمح آماله، لا يرى لنفسه بديلاً عن ميادين القتال، فكان يرجو دائماً ألا يفارق السيف يمينه، وألا يدع يوماً صهوة فرسه، حتى تكتب له الشهادة وهو قابض على سيفه.

وهكذا ودع خالد المدينة عائداً إلى حمص، ولكن لم يدم به العيش طويلا فيها، فلم يمكث بها أكثر من أربع سنوات حتى توفي بها في (16 من رمضان 21هـ = 18 من أغسطس 642م).

وحينما حضرته الوفاة انسابت الدموع من عينيه حارة حزينة ضارعة، ولم تكن دموعه رهبة من الموت أو رغبة في الحياة؛ فلطالما واجه الموت بحد سيفه في المعارك، يحمل روحه

على سن رمحه، وإنما كان حزنه وبكاؤه شوقاً إلى الشهادة، فقد عزّ عليه — وهو الذي قضى حياته بين ساحات الوغى وميادين القتال، يلوّح بسيفه فترتجف له قلوب أعدائه، وتزلزل الأرض من تحت أقدامهم — أن يموت على فراشه ولا يستشهد كما تمنى دائماً أن يموت!!

وجاءت كلماته الأخيرة تعبر عن ذلك الحزن والأسى في تأثر شديد:

(لقد حضرت كذا وكذا زحفاً، وما في جسدي موضع شبر إلا وفيه ضربة سيف، أو رمية بسهم، أو طعنة برمح، وها أنا أموت على فراشي حتف أنفي كما يموت البعير، فلا نامت أعين الجبناء!!!).

***

أشبال التوحيد

الحمد لله رب العالمين..والصلاة والسلام على إمام المربين .. المبعوث رحمة للعالمين .. سيدنا محمد .. وعلى اله وصحبه أجمعين .. أما بعد ..

فلم يعد يخفى على كل ذي بصيرة ما تبذله أنظمة الكفر العالمي وأذنابهم من جهود ضخمة في سبيل إفساد أجيال المسلمين المتعاقبة .. وما ذلك إلا لخوفهم من أن تتصل هذه الأجيال الناشئة بأسلافهم ممن ملكوا هذه الدنيا بأيديهم بعد أن أخرجوها من قلوبهم .. فطوعوا أنفسهم لنصرة دينهم .. فذلت لهم رقاب الجبابرة..

وإيمانا منا نحن إخوانكم في منبر التوحيد والجهاد أن تنشئة هذه الأجيال على عقيدة الإسلام وأخلاقه؛ على هذا النبع الصافي – توحيد وجهاد – إيمانا منا أن ذلك لا بد أن يكون من أولويات الدعاة المربين .. وان ذلك هو أشد على الكفار من رميهم بالنبل .. فقد شرعنا بنشر هذه الرسائل

الموجهة لأشبال التوحيد .. والتي نسأل الله أن تكون عونا لكافة إخواننا واخواتنا في تنشئة ذلك الجيل الفريد..

فإلى أشبال التوحيد .. نهدي هذه الكلمات..

والله من وراء القصد

منبر التوحيد والجهاد
www.tawhed.ws
www.alsunnah.info
www.almaqdese.net

سلسلة القادة والفاتحون

محمود الغزنوي

فاتح الهند

إعداد

أحمد تمام



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ارتقى سبكتكين عرش "غزنة" في أفغانستان سنة (367هـ = 977م) ونجح في أن يمد نفوذه إلى المناطق المجاورة.

واشتهر سبكتكين بالعقل والحكمة، محباً لنشر الإسلام، قادراً على سياسة الناس بالعدل، فأحبوه ووقفوا معه، وكانت له أمنية عظيمة لا تفارق خياله، وهي أن يرى راية الإسلام ترفرف على الهند، وأن ينعم الناس بعدله وسماحته.

كان هذا الأمل ملازماً له في كل تحركاته، ومن شدة تعلقه به غرسه في أبنائه، فإذا عجز عن تحقيقه هو، فلعل أحداً منهم يقوم بتحقيقه، ولم يكن الأمر سهلا فإنجازه يحتاج إلى عزيمة لا تلين، ورجال لا يهابون الموت، وأموال كثيرة لإعداد الجند وتجهيز الأسلحة، وسنوات طويلة، لكنه بدأ الخطوة الأولى في تحقيق هذا الهدف النبيل وهو يعلم أن رحلة الألف ميل تبدأ بخطوة واحدة، فأخذ يعد أبناءه لحياة الجهاد وتعلّم فنون القتال.

كان محمود بن سبكتكين في العاشرة من عمره حين ارتقى أبوه عرش غزنة، فنشأ تحت كنف أبيه ورعايته. ولم يكن سبكتكين ممن يحبون أن يحيا أولادهم في رغد من العيش ويرفلوا في النعيم يتمتعون بالحياة الناعمة الرخية، فأراد أن يعودهم على تحمل المشقات والنهوض بالمسئوليات، والقدرة على الصبر والثبات وقت الشدائد والمحن، فأحضر لهم من يمرنهم على فنون القتال، ويدربهم على ركوب الخيل، وفي الوقت نفسه دفع بهم إلى الشيوخ والمعلمين يفقهونهم في الدين، ويعلمونهم فنون السياسة والإدارة.

كان سبكتكين يعد أولاده ليكونوا امتداداً له، وربما يحققون من الآمال والطموحات ما يعجز هو عن تنفيذه؛ لذلك حرص على تربيتهم تربية صالحة، وكثيراً ما كان يأخذهم معه في غزواته وحروبه، غير أن ابنه محموداً كان أبرز أبنائه وأكثرهم التصاقاً به، وأشجعهم في ميادين القتال، فبدأ سبكتكين يميل إليه ويوكل إليه كثيراً من الأعمال، حتى أصبح ساعده الأيمن، وتعلقت الأنظار به، وبدأ أبوه يشعر بالرضا بأن له ولداً سيكون امتداداً له، وأن الدولة التي أسسها ستجد من بعده من يرعاها وينهض بها.

وفي ليلة مقمرة كان السلطان سبكتكين يجلس وحيداً في حجرته بعد أن استأذن وزراؤه وقواد جيشه، وكان الليل بديعاً، وضوء القمر يتسرب من بين فتحات شرفة حجرته فيغمر أجزاء منها بأضواء خافتة.. وأخذت تتدافع إلى ذاكرته أمور كثيرة، وعاد الأمل القديم يراوده بإلحاح، كان يتمنى أن ينشر الإسلام في الهند، وينقذ أهلها من ضلال

الوثنية، ويساعدهم على تذوق طعم الإيمان، والشعور بالإنسانية والإحساس بالسلام والأمن والعدل.

وكان في كل مرة تلح عليه هذه الفكرة، يحاول أن يخمدها بأن الظروف ليست ملائمة، وأنه لا يملك من المال والرجال ما يمكنه من النهوض بهذه المسئولية العظيمة، ولكن هذه المرة عجز عن الهروب منها، حاول أن يلجأ إلى النوم لعله ينسى هذه الرغبة، لكنه لم يستطع، وفشل النوم في أن يداعب عينيه، وظل مؤرَّقاً لا يغمض له جفن.

وقضى السلطان الليل كله في تفكير عميق حتى قطع تفكيره المتصل أذان الفجر فانسابت كلماته في قلبه كما ينساب الماء في الجداول الصغيرة، وغمرت السكينة فؤاده، فقام على الفور وتوضأ للصلاة، وأدى صلاة الفجر، ثم آوى إلى فراشه وراح في سبات عميق.

***

صحا السلطان على طرقات ابنه محمود على باب حجرته، فأدرك أنه تأخر عن موعد استيقاظه المعتاد، فقام من فراشه، ولم يستشعر كسلا على الرغم من الساعات القليلة التي نامها ووجد في نفسه نشاطاً ورغبة عارمة في العمل، وبعد أن تهيأ للخروج، اتجه إلى مجلس السلطنة حيث كان في انتظاره حاشيته وكبار رجال دولته.

جلس السلطان على كرسيه وبدا لجلسائه أن أمراً خطيراً سيبلغهم السلطان به، بعد أن أجل البت في كثير من الأمور التي عرضها عليه رجاله... ولم ينتظر السلطان كثيراً حتى بادرهم بقوله:

(إن فتوح بلاد السند بدأت كما تعلمون في أيام عمر بن الخطاب، فقد ولى عثمان بن أبي العاصي على البحرين وعمّان سنة (15هـ)، ومن هناك خرجت عدة حملات عسكرية إلى سواحل الهند وتكررت مثل هذه المحاولات في عهد الخلفيتين عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب.

وظل القادة المسلمون يطرقون أبواب الهند ويغزون أطرافها حتى كان زمن الحجاج بن يوسف والي العراق في عهد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان وابنه الوليد، فقد جهز الحجاج حملة عسكرية، واختار لها قائداً شاباً هو محمد بن القاسم، نجح في أن يحقق عدة انتصارات رائعة، وأن ينشر رايات الإسلام في تلك البلاد، ومن ذلك الحين لم يكسب

الإسلام أرضاً جديدةً، و لم يقم المسلمون بواجبهم في نشر الإسلام بالهند، ومساعدة أهلها على الخروج من الوثنية وعبادة الأصنام إلى نور الإسلام وسماحة شرائعة... وقد عزمت على أن أنال هذا الشرف).

***

كان السلطان سبكتكين قد قَويَ أمره في "غزنة" وضم إلى ملكه بعض البلدان المجاورة وأنشأ جيشاً قوياً من الأفغان والترك، ورأى أن ينطلق بتلك القوة الهائلة إلى ميدان فسيح يحقق أمله في رفع راية الإسلام، وقد جاءت الفرصة لتحقيق هذا الأمل.

خرج سبكتكين سنة (377هـ = 987م) على رأس جيش كبير إلى بلاد الهنادكة التي يحكمها "جيبال" وكانت مملكته تقع شمالي غرب الهند، ونجح في الاستيلاء على "كابل" وعاد إلى بلاده سالماً ظافراً.

غير أن "جيبال" ملك الهند ساءه أن يستولي المسلمون على أطراف مملكته، ورأى في ذلك خطراً إن هو تغاضى عن ذلك، فأعد جيشاً كبيراً وسار به إلى حدود الدولة الغزنوية، ولما علم سبكتكين بهذه التحركات خرج من غزنة ومعه أعداد هائلة من جنده وتمكن من إلحاق هزيمة كبيرة بالهنود، واضطر "جيبال" إلى طلب الصلح فأجابه المسلمون إلى ذلك بعد أن تعهد بدفع غرامة مالية كبيرة، لكن "جيبال" لم يلبث أن نكث وعده ونقض الصلح، وقبض على المسلمين الذين وفدوا عليه لتنفيذ شروط الصلح، فغضب السلطان سبكتكين وسار إليه مرة ثانية بجيشه، وكان "جيبال" قد استعان بأمراء المناطق التي حوله، فجاءوا بجيوشهم، فتجمع تحت قيادته أكثر من مائة ألف مقاتل، غير أن السلطان سبكتكين باغتهم في شجاعة وشتت شملهم وهزمهم هزيمة مدوية، فاضطروا إلى طلب الصلح بعد أن غنم السلطان غنائم عظيمة، وامتلك بعذ البلدان والقلاع في الشمال الغربي من شبه القارة الهندية.

***

كانت سعادة السلطان في حياة الجهاد وإعداد الجيوش، وكان يطير من الفرح حين يعلم أن قرية بعيدة دخلت في الإسلام، و لم يكن يهمه أن يشير إليه الناس في إعجاب، ويفخرون بانتصارته... يكفيه أن يتردد الأذان في الآفاق، وتقام الصلوات في مساجد جديدة، وأن يكسب الإسلام أنصاراً وأعواناً من أهالي البلاد التي يفتحها.

وبدأ السلطان يشعر بالتعب في أخريات حياته، فعناء السنين المتصل هد قوته، و لم تعد صحته تتحمل المزيد، وكان ابنه محمود يتحمل بعضاً من تبعات والده. واستشعر السلطان دنو وفاته، وغلب عليه الشعور بالرضا وأنه عمل لخدمة الإسلام ما وسعه الجهد والطاقة، وأنه ترك دولة قوية ثابتة الأركان.

تولى محمود السلطنة بعد وفاة أبيه سنة (388هـ = 998م)، وكانت الأنظار تتجه إليه وتأمل أن يتحقق الخير على يديه، وكان السلطان الجديد مثل أبيه محباً للجهاد، غيوراً على الإسلام، يحلم بنشر الإسلام في ربوع الهند..

وعزم السلطان على أن تكون فتوحاته في الهند متصلة لا تتوقف حتى يحقق أغراضها، وإذا كان أبوه قد فتح له الطريق إلى الهند، ومهد له السبيل فعليه أن يواصل الفتح حتى أقصى مكان في الهند... إنها أمنية غالية.

وقبل أن يبدأ محمود الغزنوي فتوحاته العظيمة رأى أن يطمئن على جبهته الداخلية وأحوال دولته، فمد سلطانه على كل بلاد إيران وما وراء النهر، و لم يعد له أعداء يناوئونه في شمال بلاده أو غربها، وجاءت الفرصة لتحقيق ما كان يحلم به.

وجاء أول تحرك للسلطان محمود الغزنوي في سنة (392هـ) لغزو الهند، فخرج على رأس جيش يتكون من عشرة آلاف جندي، والتقى عند مدينة بشاور بجيش الملك "جيبال" الذي يتكون من اثني عشر ألفاً من المشاة يحتمون بثلاثمائة من الفيلة العظيمة ونشبت معركة هائلة بين الفريقين، وأبلى المسلمون بلاء حسناً، حتى تحقق النصر لهم ووقع في الأسر السلطان الهندي وجماعة من أبنائه وأقربائه، وظل أسيراً حتى افتدى نفسه بأموال كثيرة، و لم يستطع أن يحيا بين شعبه مرفوع الرأس بعد أن وقع في ذل الأسر، فأقدم على حرق نفسه، وخلفه ابنه "أناندابال".

وفي سنة (395هـ = 1004م) أعد محمود الغزنوي حملة كبيرة لفتح "بهاطية" وكانت مدينة محصنة يحيط بها خندق عميق، وكان واليها فخوراً بكثرة جنوده وأفياله، فلم يعبأ بمحمود الغزنوي وأظهر الاستهانة به والتقليل من شأنه، فلما التقى الفريقان استمرت الحرب سجالا ثلاثة أيام، ثم انتهت المعركة بانتصار الغزنوي، ودخول جنوده مدينة بهاطية المنيعة، وأقام بها فترة يصلح أمورها ويعيد تنظيم أحوالها، ثم دعا أهلها إلى الإسلام وعين عليهم من أسلم من أهلها، وعاد إلى بلاده.

و لم تطل مدة إقامة السلطان محمود في "غزنة" حتى عاد إلى استئناف الفتح من جديد واتجه في سنة (396هـــ = 1005م) إلى إقليم "الملتان"، وكان فيه مركز الهندوكية في شمال الهند الغربي وبه صنم كبير جداً يحج إليه الهنود ويقدمون له القرابين، وقد كلل الله سعي السلطان محمود بالنصر واستولى على إقليم الملتان وضمه إلى دولته، ثم قام الغزنوي بفتح بقية مملكة جيبال وابنه "أناندابال"، واتسعت بذلك مملكته وزادت هيبته في النفوس.

جلس "أناندابال" ذات ليلة يفكر في مصيره بعد أن ضاعت دولته وذهب جاهه وسلطانه... قال لنفسه: ماذا أفعل بعد أن فشلت كل حروبي مع السلطان محمود الغزنوي لاسترداد ما أخذه مني... لم أعد قادراً على مواجهته وحدي ولا بد من القيام بعمل موحد لصد فتوحات محمود الغزنوي... وقام على الفور ودعا بكاتبه وطلب منه أن يبعث برسائله إلى ملوك الهند ليستعين بهم ضد خصمه...

وكانت استجابة ملوك الهند أسرع مما يتوقع، وكانوا جميعاً يعدون السلطان الغزنوي خطراً عليهم.. وبعث إليه ملوك أجين وكواليار وكالنكر وقتوج وأجمير ودلهي بجيوشهم إلى البنجاب.

وصلت أنباء هذه الحشود إلى مسامع السلطان فانتابه شيء من القلق، و لم تكن بخزائنه من الأموال ما يكفي لإعداد الجيش الذي يستطيع أن يواجه هذه الحشود التي تتزايد يوماً بعد يوم... وكاد القلق يتحول إلى فزع وهلع من نقص الأموال، ولما علمت نساء المسلمين بهذا أسرعن بالتبرع بحليهن من الذهب والفضة، وما يدخرن من أموال لمساعدة السلطان محمود الغزنوي في إعداد الجيش وتجهيزه، واحتشد الجيشان في صحراء بشاور سنة (398هـــ = 1007م)، ودارت بينهما معركة ضارية، وثبت المسلمون في ميدان المعركة، وفرت الفيلة مذعورة من هول القتال، فاختلت صفوف الجيش الهندي واضطربت الجنود فولت هاربة وعلى رأسهم "أناندابال" وتحقق النصر للمسلمين، وغنموا أموالا وذخائر وكنوزاً كانت بحوزة الجيش الهندي.

ثم تقدم الجيش المسلم إلى قلعة تسمى "بهيمنكر" على سفح الهمالايا، وكان الهندوس قد جعلوها خزانة لصنمهم الأكبر، ينقلون إليها أنواع الجواهر وأغلاها سعراً تقرباً إليه، فاجتمع في القلعة على طول السنين كميات هائلة من نفائس الذهب والفضة والجواهر.

وحاصر المسلمون القلعة حصاراً شديداً، و لم يصبر الهنود على المقاومة فخارت عزائمهم وخانتهم شجاعتهم فاستسلموا وفتحوا باب الحصن، ودخل المسلمون الحصن، ورأوا ما يدهش العقول من نفائس الجواهر والأحجار الثمينة، فأخذوا هذه الغنائم وعادوا

بها إلى "غزنة" وهناك عرض السلطان هذه الغنائم ثلاثة أيام ليراها الناس ويستشعروا فضل الله وتوفيقه لعباده المؤمنين، ثم قام السلطان الغزنوي بتوزيع الغنائم على الفقراء والمساكين وغيرهم ممن يريد أن يؤلف قلوبهم.

وتوالت فتوحات الغزنوي على بلاد الهند، وكلما حقق نجاحاً كان دافعاً للقيام بفتوحات أخرى، واستولى على "ناردبين" آخر حصون إقليم "الملتان" سنة (404هـ = 1013م).

ثم اتجه بعد ذلك إلى فتح كشمير المجاورة لممتلكاته الهندية سنة (408هـ = 1017م) ولما بلغ مشارف المدينة خرج إليه حاكمها، وأعلن إسلامه بين يديه، ودخوله في طاعته وأصبح واحداً من ولاته الخاضعين له.

وواصل الغزنوي مسيرته الظافرة في المدن والحصون والقلاع، وكانت جنوده كثيراً ما يتركون وراءهم أواني الفضة التي غنموها لثقلها، ويكتفون بما يحملونه من الذهب والجواهر وبقي أمل عظيم يراود الفاتح العظيم في أن يضم بلاد الكجرات إلى دولته وأن يصل إلى "سومنات" التي تحتوي على أكبر قدس عند الهندوس، وتقع على شاطىء بحر العرب.

كان في هذا المعبد صنم يعرف بسومنات وهو أكبر صنم يعظمه الهنود، يحجون إليه كل ليلة خسوف ويعتقدون أن الأرواح إذا فارقت الأحياء اجتمعت فيه، فينشئها من جديد في جسم آخر، على حسب ما كانت عليه من خير أو شر، وكانوا يحملون إليه أغلى الجواهر وأنفسها، ويعطون خدام المعبد أموالا وفيرة، وفي كل عام يجتمع عنده من الهنود ألف رجل لعبادته، ومئات أخرى من الرجال والنساء يغنون حوله ويرقصون.

وشاع بين الهندوس أنه كلما هدم الغزنوي صنماً لهم قالوا: إن سومنات غاضب على هذا الصنم، فلو كان راضياً عنه ما استطاع الغزنوي أن يحطمه ولهلك قبل أن يبلغه، وكانت رغبة السلطان شديدة في الاستيلاء على هذه المدينة التي تضم الصنم الشهير، لكونها أخطر مراكز الهنود في مواجهة الفتح الإسلامي والتصدي له؛ ولذلك عزم السلطان على مواصلة الفتح.

***

تحرك السلطان على رأس جيش كبير سنة (416هـ = 1025م) وتحت قيادته ثلاثون ألف فارس وآلاف المتطوعين، وكلهم رغبة في الجهاد وتحرير الهنود من الجهل والظلام والطغيان. و لم يكن الطريق سهلا فكان عليه أن يجتاز صحراء مهلكة حتى يبلغ "سومنات" فاستعد لذلك بالماء والزاد، وأثناء الطريق كانت البلاد والقلاع تقع في يديه حتى وصل إلى هدفه في منتصف ذي القعدة سنة (416هـ = 1026م).

لاحت له المدينة من بعد على ربوة عالية حصناً منيعاً على البحر، ورأى أهل "سومنات" على أسوار المدينة يتفرجون على المسلمين القادمين، لم يشعروا بالخوف فقد كانوا واثقين من مصير المسلمين المحتوم وهلاكهم جميعاً على يد صنمهم "سومنات" وكانوا يظنون أن "سومنات" هو الذي دعاهم إلى معبده ليهلكهم ويريح البلاد منهم.

غير أن المدافعين عن قلعتهم سرعان ما أفاقوا من أوهامهم، حيث زلزلت قلوبهم صيحات المجاهدين، وأصوات السيوف، وصرخات جنودهم، فاندفع من نجا منهم إلى معبدهم يدافعون عنه، وكانوا يدخلون إلى صنمهم يعانقونه ويبكون، ثم يخرجون للقتال، و لم يستطع صنمنهم أن يمنع مصيرهم المحتوم، وولوا هاربين تاركين معبدهم في يد المسلمين يفعلون به ما يشاءون، وغنم المسلمون كل ذخائر المعبد ومجوهراته، وهدموا سومنات صنم البراهمة، واشترك السلطان بنفسه في تحطيمه، وأرسل منه قطعا إلى "غزنة" و "مكة"، و "بغداد" إعلاناً عن هذا الفتح العظيم، ثم عاد إلى بلاده.

وتمكن السلطان بهذه الفتوح أن يمد الإسلام إلى بقاع جديدة لأول مرة، وأن يرفع الأذان في مناطق كانت مليئة بالشرك والإلحاد، وأن يشيد المساجد مكان معابد الأوثان، وأن ينشر الإسلام سمحاً بين الناس لينعموا بعدله ويعيشوا في أمن تحت ظله، وأن يضيف إلى العالم الإسلامي مساحة من الأرض تعادل – كما يقول المؤرخون – ما فتحه المسلمون في عهد عمر بن الخطاب.

كان السلطان محمود الغزنوي إلى جانب كونه من الفاتحين العظام سياسياً ماهراً، فنجح في أن يستميل إليه الهندوس ويستخدمهم في إدارات دولته وأن يجند بعضهم في جيشه، وأن يجعلهم جزءاً من نسيج دولته يتمتعون بحمايتها.

وعُرِف عن الغزنوي شغفه بعلم الحديث النبوي، وميله إلى الفقه، وينسب إليه كتاب كبير في الفقه، وضم بلاطه في "غزنة" نوابع العلماء والكتاب والشعراء، وكان لا يسمع بعالم كبير إلا بعث في طلبه، وأسبغ عليه كرمه وأنزله أفضل منزلة، وامتلأ مجلسه بكواكب لامعة من أهل العلم "كالبيروني" صاحب المؤلفات العظيمة في الرياضيات

والطب والتاريخ والجغرافيا، والشاعر الفارسي المعروف "الفردوسي" صاحب الشاهنامة، أو كتاب الملوك، وهي ملحمة شعرية تتألف من ستين ألف بيت، والمؤرخ الكبير محمد بن عبد الجبار المعروف بالعتبي، الذي ألف كتاباًعن السلطان محمود بعنوان "اليميني" نسبة إلى لقب السلطان "يمين الدولة" جميع فيه سيرة السلطان وفتوحاته.

وظل "محمود" مجاهداً لا يركن إلى الراحة أو يتمتع بمباهج الحياة وهو يرى فرصة تسنح له لنشر الإسلام في ربوع الهند.

ومرض في أخريات حياته، لكن ظل يواصل عمله ويشرف على أمور دولته حتى توفي في شهر ربيع الآخر (421هـ = إبريل 1030م) بعد حياة مليئة بالعمل والجهاد، خلدت اسمه بين الفاتحين العظام في تاريخ الإسلام.

***

أشبال التوحيد

الحمد لله رب العالمين..والصلاة والسلام على إمام المربين .. المبعوث رحمة للعالمين .. سيدنا محمد .. وعلى اله وصحبه أجمعين .. أما بعد ..

فلم يعد يخفى على كل ذي بصيرة ما تبذله أنظمة الكفر العالمي وأذنابهم من جهود ضخمة في سبيل إفساد أجيال المسلمين المتعاقبة .. وما ذلك إلا لخوفهم من أن تتصل هذه الأجيال الناشئة بأسلافهم ممن ملكوا هذه الدنيا بأيديهم بعد أن أخرجوها من قلوبهم .. فطوعوا أنفسهم لنصرة دينهم .. فذلت لهم رقاب الجبابرة..

وإيمانا منا نحن إخوانكم في منبر التوحيد والجهاد أن تنشئة هذه الأجيال على عقيدة الإسلام وأخلاقه؛ على هذا النبع الصافي – توحيد وجهاد – إيمانا منا أن ذلك لا بد أن يكون من أولويات الدعاة المربين .. وان ذلك هو أشد على الكفار من رميهم بالنبل .. فقد شرعنا بنشر هذه الرسائل

الموجهة لأشبال التوحيد .. والتي نسأل الله أن تكون عونا لكافة إخواننا واخواتنا في تنشئة ذلك الجيل الفريد..

فإلى أشبال التوحيد .. نهدي هذه الكلمات..

والله من وراء القصد

منبر التوحيد والجهاد
www.tawhed.ws
www.alsunnah.info
www.almaqdese.net

سلسلة القادة والفاتحون

ألب أرسلان

الملك المكفن

إعداد

سلامة محمد سلامة



بسم الله الرحمن الرحيم

وقف جميع أفراد البيت السلجوقي حول جثمان زعيمهم "طغْرُل بك بن ميكائيل"، وقد علا الحزن وجوههم، وملأت الدموع أعينهم، وخيّم عليهم صمت رهيب؛ فقد مات السلطان العظيم مؤسس دولة السلاجقة، وباني مجدها وعزها، مات بعد أن ترك دولة عظيمة راسخة الأركان، متينة البنيان، تبسط نفوذها على جميع إيران والعراق، وتحظى بتأييد الخليفة العباسي "القائم بأمر الله" فأصبح الأتراك السلاجقة بفضل جهوده أكبر قوة في العالم الإسلامي بعد أن كانوا مجرد قبائل رحّل تنتقل من مكان إلى آخر بحثاً عن المراعب الخصبة، فبكاه جميع الحاضرين بكاء مراً، وحزنوا لفراقه أشد الحزن، كما بكاه جميع شعبه الذي أخلص له وأحبه أشد الحب.

وبعد أن فرغ القادة والأمراء وكبار رجال الدولة من دفن سلطانهم في يوم الثامن من رمضان سنة (455هـ) سبتمبر (1063م)، توجهوا جميعاً في موكب مهيب إلى قاعة الحكم للنظر في أمور الدولة بعد وفاة سلطانها الأول "طغرل بك". تصدر الوزير "عميد الملك الكندري" قاعة السلطنة التي امتلأت عن آخرها، وقد وضع إحدى يديه على العرش، وأمسك بالأخرى لفافة من الورق عليها ختم السلطان، وطلب من جميع الحاضرين أن ينصتوا إليه جيداً، وأخذ يقول في نبرة حادة يملؤها الثقة والثبات: كما تعلمون فإن السلطان "طغرل بك" لم ينجب ولداً يرث العرش من بعده؛ فقد أوصى السلطان العظيم أن يخلفه على عرشه ابن أخيه "سليمان بن جغري"، ثم استطرد قائلا:

وكما تعلمون أيضاً فإن أم "سليمان" هي زوجة سلطانكم الراحل، والتي كان قد تزوجها بعد وفاة القائد العظيم "جغري"، فما رأي القادة والأمراء الأعزاء في وصية سلطاننا العظيم؟!!

صمت الحاضرون للحظات طويلة، وقد ارتسمت على وجوههم علامات الدهشة والحيرة، لكن صوتاً حاداً قوياً صدر عن أحد الأمراء الجالسين قطع ذلك الصمت قائلا: كيف يعتلي عرش دولتنا الفتية المترامية الأطراف – والتي أصبحت تزود عن دار الخلافة ضد أعدائها – سلطان لم يتجاوز الرابعة من عمره إلا ببضعة أشهر؟! هذا كلام لا يقبله عقل؟!

ثم وقف أحد الأمراء المشهود لهم بالحكمة ورجاحة العقل، ووجه كلامه إلى الوزير: ولماذا لا يعتلي العرش الأمير "ألب أرسلان بن جغري" أخو "سليمان" الأكبر؟ فهو رجل جدير بالسلطنة والنهوض بمسئولياتها، وقد تعهده أبوه "جغري" منذ مولده بالرعاية

والعناية حتى أصبح من خيرة القادة والفرسان، فأسند إليه قيادة الجيوش في "خراسان" وهو في سن مبكرة فأظهر شجاعة نادرة، وانتصر في جميع المعارك التي خاضها، كما أسند إليه عمه السلطان العظيم "طغرل" قيادة الجيش السلجوقي لإخماد الثورات الداخلية التي قامت في "فارس" فقام بهذه المهمة على خير وجه.

وقال ثالث: ولا تنس يا سيدي الوزير أن الأمير "أرسلان" تدرب جيداً على إدارة شئون الحكم منذ توليه حكم بلاد "خراسان" بعد وفاة أبيه "جغري" سنة (451هـ) (1059م) حتى الآن، فأثبت أنه صاحب حكمة وسياسة ووفاء. استمع الوزير "عميد الملك الكندري" إلى كلمات القادة والأمراء في ضيق وغضب، فعلى الرغم من أنه كان يعلم أن رأيهم هو الرأي الصواب، وأن "ألب أرسلان" هو خير من يتولى السلطنة فإنه وجد في تعيين "سليمان" مصلحة كبيرة له؛ فصغر سنه يمكنه من الاحتفاظ بالوزارة، والانفراد بالسلطة وتوجيه كافة أمور الدولة السلجوقية التي كافح وناضل من أجل ازدهارها ورقيها، وكان أحد العوامل المهمة في سموها وعزها، فكيف يتركها هكذا لقمة سائغة لغيره؟ فبادر بإعلان "سليمان بن جغري" سلطاناً على البلاد، وقال لجموع الحاضرين بإصرار وعناد: هذه هي وصية السلطان ولا بد من تنفيذها مهما كانت العواقب والعراقيل.

خرج الأمراء من قاعة السلطنة وقد اشتعلت صدورهم غضباً وحنقاً من تسلط الوزير "عميد الملك الكندري"، وقرروا جميعاً أن يفسدوا خطته، ويرفضوا مبايعة السلطان الصغير؛ فأرسلوا في طلب الأمير "ألب أرسلان" للحضور فوراً إلى مقر الحكم لإنقاذ عرش البلاد، وعندما وصلت رسالتهم إلى الأمير لم يتردد في تلبية طلبهم، وامتطى صهوة جواده من فوره، وانطلق يسابق الريح صوب "الري" عاصمة الدولة السلجوقية، ولم يكد الفارس الشجاع يدخل أبواب العاصمة حتى بادر جميع آل سلجوق بإعلان تأييدهم له ومبايعته بالحكم، بل استقبلوه استقبال الأبطال الفاتحين، وبعد أن جلس السلطان على عرش بلاده سنة (55هـ) (1063م) قرر عزل الوزير "عميد الملك الكندري" من منصبه، وتولية الوزير "نظام الملك" الذي كان وزيراً له أثناء إمارته على "خراسان" بدلا منه؛ وكان "نظام الملك" رجلا حكيماً، وسياسياً خبيراً، واسع الثقافة، بعيد النظر، ذا ذكاء ودهاء فكان خير من يتولى هذا المنصب الخطير.

***

قضى السلطان الشاب ليله ساهراً لم يغمض له جفن بعد أن جاءته أنباء متفرقة بقيام العديد من الثورات وحركات العصيان ومحاولات الانفصال من قبل ولاته وأقاربه

الطامعين في السلطنة من أفراد البيت السلجوقي، فشغلت باله، وأقلقت خاطره، وأغرقته في بحر عميق من الهموم؛ فقد كان يعلم بخبرته الواسعة، ورجاحة عقله، وبعد نظره أن تلك الفتن والثورات يمكنها أن تضعف دولته، بل تفتك بها، وتجعلها مطمعاً لأعدائه في الخارج، فخرج السلطان الشجاع على رأس جيشه إليهم، وشن هجوماً مباغتاً عليهم، واستطاع أن يحقق انتصارات رائعة بهرت جميع أعدائه من حوله، فوط دعائم ملكه، وأرهب جميع خصومه، وأخمد الفتنة في مهدها، فعظم أمره، وعلا شأنه وزاد نفوذه، ولم يهدأ له بال طوال ست سنوات متتالية منذ عام (457هـ) (1064م)، حتى عام (463هـ) (1070م) حتى أيقن أن جميع أقاليم البلاد قد دانت له بالولاء والطاعة، وأنه أصبح مهاباً ليس في جميع أرجاء سلطنته فحسب بل خارجها أيضاً.

***

توجه السلطان "ألب أرسلان" إلى قاعة السلطنة في ساعة متأخرة من الليل، وظل واقفاً فترة طويلة أمام خريطة كبيرة كان قد أمر بوضعها في مكان بارز في صدر القاعة، ثم أطرق يفكر في حلمه الكبير الذي يراوده كثيراً، ولا يكاد يفارق خياله عندما يرى نور الإسلام يشرق على ربوع أوربا بأسرها فتنعم بعدله ورحمته وسماحته، وظل السلطان على حالته تلك حتى أضناه التفكير، وأتعبه السهر، فجلس على كرسي العرش قليلا، ثم أرسل في طلب وزيره المحنك "نظام الملك" ليسترشد برأيه، وينهل من حكمته، فهرول الوزير إليه، وجلس أمامه يستمع إليه في اهتمام شديد، وحماس زائد، وبعد أن فرغ السلطان من كلامه تحدث الوزير إلى السلطان، وقد علا البشر وجهه، وملأت الفرحة عينه قائلا: سيدي السلطان، إن ما تفكر فيه لهو أعظم هدف، وأسمى رسالة، وقد حان الوقت لتنطلق رايات الإسلام نحو هذه البقعة من العالم، فسر على بركة الله، ولا تتردد، فإن النصر سيكون حليفك إن شاء الله، فسر السلطان كثيراً من كلام وزيره وقرر أن يخلد إلى النوم بعد أن ارتاح قلبه، وهدأت نفسه.

أقبل صاحب البريد مسرعاً وهو يلتقط أنفاسه بصعوبة بالغة، ثم وضع بين يدي السلطان "ألب أرسلان" رسالة مهمة وعاجلة، وما كاد السلطان يقرأ محتوى الرسالة حتى هب واقفاً، وهو يقول في غضب شديد: كيف تجرؤ تلك الأقاليم المسيحية أن تغير على بلاد "أذربيجان" التابعة لنا؟! لا بد أن ألقنهم درساً لن ينسوه أبداً، وعلى الرغم من خطورة الموقف فإن السلطان "أرسلان" أحس بارتباح وسرور كبير، وشعر أن الله — تعالى — يدفعه نحو تحقيق حلمه بفتح بلاد أوربا، فأمر بتجهيز جيش جرار من أربعين ألف مقاتل، وزحف بهم تجاه جنوب "أذربيجان"، وخاض عدة معارك طاحنة، وحقق

انتصارات رائعة، وتمكن من فتح "جورجيا" وبلاد الأرمن، وأجزاء كبيرة من البلاد الواقعة بين بحيرتي "وان" و "أورمية"، كما سيطر على جميع القلاع الحصينة الواقعة في طريقه.

***

شعر إمبراطور الروم "رومانوس ديوجينس" بالفزع الشديد بعد تلك الانتصارات الكبيرة للسلطان الشجاع "ألب أرسلان" فتنبه للخطر الشديد الذي أصبحت تشكله الدولة السلجوقية على الإمبراطورية البيزنطية، فتحرك بنفسه على رأس جيش ضخم لمواجهة هذا الخطر، والقضاء عليه تماماً، وقام بوضع خطة ماكرة لتطويق الجيش السلجوقي فاتجه نحو بلاد الشام، واستولى على منطقة "حلب" بسهولة، فأصبح جيشه في موقع يمكنه من تطويق جيش السلاجقة، ففطن "أرسلان" إلى هدف القيصر، فأرسل جزءاً من جيشه بقيادة ولده "ملكشاه" لغزو الأجزاء الشمالية من بلاد الشام، فتمكن الفارس "ملكشاه" وبكفاءة نادرة من فتح مدينة "حلب"، كما تمكن من الاستيلاء على أجزاء كبيرة من بلاد الشام، وفتح "بيت المقدس" فأفسد بذلك خطة البيزنطيين تماماً، فلم يجد قيصر الروم بداً من الهجوم المباشر على الدولة السلجوقية للقضاء عليها وتأمين حدود بلاده، فغادر القسطنطينية على رأس جيش ضخم يتكون من مائتي ألف مقاتل مدججين بأقوى الأسلحة والمعدات الحربية، واتجه نحو المنطقة التي يعسكر بها الجيش السلجوقي بالقرب من منطقة "ملاذ كرد"، وكان ذلك سنة (463هـ) (1070م).

رأى السلطان "ألب أرسلان" جحافل البيزنطيين المهولة وهي تزحف نحوه في جلبة عظيمة، فوجد أنها تفوق عدد جيشه بخمسة أضعاف بل يزيد، فشعر أنه أمام خطر داهم، وقوة غاشمة يمكنها أن تسحق جيشه بسهولة، لكنه لم يفكر كثيراً عندما رأى مقدمة الجيش قد ابتعدت كثيراً عن بقيته فاستغل الفرصة، وبادر بالهجوم المباغت عليها، واستطاع أن يحرز نصراً ساحقاً في أولى معاركه مع جيش الروم، وكان السلطان "أرسلان" يتمتع بعقلية حربية فذة، وذكاء ثاقب، فلم يترك هذا النصر المبدئي دون أن يستغله في مصلحته، فأرسل إلى إمبراطور الروم "رومانوس" يعرض عليه الصلح؛ وبذلك يؤجل المواجهة معه فترة من الزمن يستطيع خلالها إعادة تنظيم قواته وزيادة عددها، لكن قيصر الروم رفض الصلح بشدة، وأشاح بوجهه في غطرسة وكبرياء، ولم يحاول الاستماع إلى كلام مبعوث السلطان، وقال في تكبر شديد: أبلغوا سلطان السلاجقة أن الصلح لن يتم إلا في مدينة "الري" عاصمة بلاده، ولكن بعد الاستيلاء عليها وإذلال أهلها، وإخضاع جميع الأتراك لحكم أسيادهم البيزنطيين.

***

علم السلطان "ألب أرسلان" برد قيصر الروم فخطب في جنوده قائلا: (أيها الجنود البواسل إن الإسلام اليوم في خطر شديد ولا سبيل إلى إنقاذه من هذا الخطر إلا بالقضاء على ذلك الجيش الرومي وقائده المتغطرس، فاستميتوا يا جند الله في القتال دفاعاً عن دين الحق الذي يزيغ أمامه كل باطل، واعلموا أن هذه المعركة هي سبيلكم للظفر بإحدى الحسنيين إما النصر أو الشهادة).

ثم تقدم الإمام الفقيه "أبو نصر محمد بن عبد الملك البخاري" ووجه كلامه إلى السلطان قائلا: (يا سلطان البلاد إنك تقاتل عن دين وعد الله بنصره وإظهاره على سائر الأديان، وأرجو أن يكون الله – تعالى – قد كتب باسمك هذا الفتح فألقهم يوم الجمعة بعد الزوال، في الساعة التي تكون الخطباء على المنابر، فإنهم يدعون للمجاهدين بالنصر).

***

فلما جاءت الساعة الحاسمة صلى السلطان بجنوده، وأخذ يدعو الله دعاء حاراً حتى بكى فبكى جميع جنوده من خلفه، ثم لبس ملابس بيضاء، وقال لمن حوله: (إن قتلت فهذا كفني!)، فألهب السلطان بتصرفه حماس جنوده فانطلقوا كالسيل المنهمر نحو معسكر الأعداء، وهم يزأرون بالتكبير زئيراً مدوياً كأنهم أسود جائعة تبحث عن فرائسها، ودارت رحى المعركة الطاحنة، وأمعن الجنود السلاجقة الشجعان في جيش الروم جرحاً وتقتيلا حتى فرشوا ساحة المعركة بجثثهم، فانهار الجيش الرومي، وتزعزعت صفوفه، ووقع كثير منهم في الأسر، وفر الآخرون وهم مذعورون أمام شبح الموت المحقق، ولاحت بشائر النصر المبين عندما تمكنت مجموعة من الفرسان السلاجقة من أسر إمبراطوار الروم "رومانوس" بعد معركة شرسة مع حرسه، فكانت الضربة القاصمة للجيش الرومي وقائده المتغطرس، وسيق الإمبراطور إلى خيمة السلطان ذليلا كسيراً فلما وقف أمام السلطان قال له: ماذا كنت تفعل بي يا رومانوس لو كنت وقعت في أسرك؟!

فقال رومانوس:

– أعذبك عذاباً شديداً، ثم أقتلك شر قتلة.

فقال السلطان:

– فماذا تظن أني فاعل بك؟!

قال رومانوس:

– إما أن تقتلني، وإما أن تجعلني أضحوكة بين الناس، والأخيرة لا أتوقع أن تفعلها، وهي أن تعفو عني، وتقبل أن أدفع لك الفدية، ثم تجعلني نائباً عنك**!!**

فقال له السلطان:

– وهذا ما عزمت أن أفعله معك.

وبالفعل أصدر السلطان قراراً بالعفو عن إمبراطور الروم مقابل فدية مقدارها مليون ونصف مليون دينار، وعامله معاملة حسنة، وعقد معه صلحاً مدته خمسون عاماً، ثم أطلق سراحه وأمر عدداً من جنوده ليكونوا في صحبته حتى يصل إلى دياره سالماً، فأذهل السلطان العظيم "ألب أرسلان" بعفوه وتسامحه ورقته العالم بأسره، وعندما وصل "رومانوس" إلى عاصمة بلاده استقبله رعاياه استقبالا مراً، وأزالوا اسمه من سجلات المُلْك، وعينوا إمبراطوراً آخر بدلا منه، وزادوا على ذلك بفقأ عينيه وإلقائه في السجن.

***

ارتفع شأن السلطان "ألب أرسلان" بعد انتصاره الباهر في موقعة "ملاذكرد"، فأصبح مهاباً في الشرق والغرب، كما أصبح محبوباً من جميع المسلمين في أنحاء العالم، ولم لا؟ وهو القائد العظيم الذي استطاع أن يهزم أكبر قوة في العالم حينئذ، ويوقف تقدمها نحو ديار الإسلام، ويمهد الطريق لرايات الإسلام لتنطلق بقوة نحو آسيا الصغرى وأوربا، كما استطاع أن يزيد من رقعة دولته، ويجعل جيشه أعظم جيش في ذلك الوقت، لكن السلطان الشجاع لم يعش طويلا ليجني ثمار نصره، ويواصل تقدمه نحو حلمه الكبير، وذلك بعد أن عادت الفتنة تظهر من جديد في بلاد "ما وراء النهر"، وتهدد استقرار البلاد وأمنها، فقرر السلطان أن يتجه بجيشه المظفر في أوائل سنة (465هـ) (1072م) ليخمد تلك الفتن والثورات، فعبر نهر "جيحون"، وهاجم إحدى القلاع، واستولى عليها، وقبض على قائدها، وكان يسمى "يوسف الخوارزمي"، وأصر السلطان أن يقتل هذا الرجل بنفسه؛ لأنه تسبب في قتل كثير من جنده، فرماه السلطان بسهم فأخطأه، فأخرج "يوسف" خنجراً كان يخفيه في ملابسه وطعن السلطان طعنة نافذة في صدره، ولم تمض أربعة أيام حتى مات السلطان العظيم والقائد الشجاع "ألب أرسلان" من أثر تلك الطعنة في يوم العاشر من ربيع الأول سنة (465هـ) الموافق 17 من نوفمبر سنة (1072م)، بعد أن وطد دعائم مملكة عظيمة تمتد من نهر "جيحون" حتى نهر "دجلة" في مدة تسعة أعوام ونصف العام فقط، فبكى المسلمون ذلك القائد العظيم، والحاكم العادل الذي لم

يتجاوز أبداً في جمع الأموال من رعيته، بل كان دائماً كثير الصدقات، محباً للخير والعمران، باراً بأهله وأصحابه وجميع أفراد شعبه.

***

أشبال التوحيد

الحمد لله رب العالمين..والصلاة والسلام على إمام المربين .. المبعوث رحمة للعالمين .. سيدنا محمد .. وعلى اله وصحبه أجمعين .. أما بعد ..

فلم يعد يخفى على كل ذي بصيرة ما تبذله أنظمة الكفر العالمي وأذنابهم من جهود ضخمة في سبيل إفساد أجيال المسلمين المتعاقبة .. وما ذلك إلا لخوفهم من أن تتصل هذه الأجيال الناشئة بأسلافهم ممن ملكوا هذه الدنيا بأيديهم بعد أن أخرجوها من قلوبهم .. فطوعوا أنفسهم لنصرة دينهم .. فذلت لهم رقاب الجبابرة..

وإيمانا منا نحن إخوانكم في منبر التوحيد والجهاد أن تنشئة هذه الأجيال على عقيدة الإسلام وأخلاقه؛ على هذا النبع الصافي – توحيد وجهاد – إيمانا منا أن ذلك لا بد أن يكون من أولويات الدعاة المربين .. وان ذلك هو أشد على الكفار من رميهم بالنبل .. فقد شرعنا بنشر هذه الرسائل

الموجهة لأشبال التوحيد .. والتي نسأل الله أن تكون عونا لكافة إخواننا واخواتنا في تنشئة ذلك الجيل الفريد..

فإلى أشبال التوحيد .. نهدي هذه الكلمات..

والله من وراء القصد

منبر التوحيد والجهاد
www.tawhed.ws
www.alsunnah.info
www.almaqdese.net